

الوساطة بين النبي وخصومه

للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني

تحقيق وشرح
محمد أبو الفضل إبراهيم
علي محمد البجاوي

المكتبة العصرية
مسقط - برون

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - 2006 م

موقعنا على الإنترنت:

www.almaktaba-alassrya.com

شركة أبناء شريف الانصاري
للطباعة والنشر والتوزيع

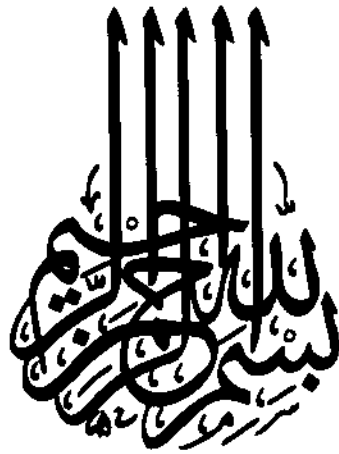
المكتبة العصرية

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب. ٨٣٥٥ - ١١ - تليفاكس ٦٥٥-٦١١١
صيدا - ص.ب. ٢٢١ - تليفاكس ٣١٧-٧٢-٩٦١٧

E-mail: alassrya@terra.net.lb - alassrya@cyberia.net.lb

ISBN- 9953-34-496-5



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصل النقد في القرن الرابع إلى أوجه، فصار خصباً، متسع الآفاق، معتمداً على الذوق الأدبي السليم، مؤتسماً بمناحي العلم في الصورة والشكل لا في الجوهر والروح؛ إن حلل فبذوق سليم، وإن علل فمبني على سديد، وإن عرض لفكرة أتى على كل ما فيها^(١).

واختفى - أو كاد - تبعاً لذلك، أو نتيجة له، من حَلْبته اللغويون والنحاة، وحمل رايته الأدباء؛ يتميز نقدهم باستقصاء البحث، وشُمُول الفكرة، وتوضيح العلل، والموازنة العامة بين الشعراء، وعُنُوا بدراسة الشعر وتقدير رجاله، وتخاصموا فيهم؛ فهذا ينتصر لأبي تمام، وذاك يتشيع للبحثري، وهؤلاء يرفعون من مقدار المتنبي وينسبون إليه كل فضيلة في الشعر، وأولئك ينتقصون منه ويؤمنونه بالتعقيد والمعازلة والالتواء؛ وعمرت بأحاديثهم مجالس الأدب؛ وسارت مقالاتهم وكتبهم في كل صُقع وواد.

من هؤلاء أبو الفرج الأصفهاني، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبو علي الحاتمي، وأبو الحسن بن لُتْكَ البصري، والآمدي، والجرجاني... إلا أن أبا الحسن الجرجاني كان أضرَحَهُم نقداً، وأوسعهم أفقاً، وأشملهم بحثاً.

فقد ظهر المتنبي فملاً الدنيا وشغل الناس، كما يقول ابن رشيقي، واختصم الأدباء في شعره، وقطعوا الأزمان المتواصلة في تحديد أغراضه؛ وتعصب له فريق، وغض من شأنه فريق، وكان من الذين غَضُوا من شعره الصاحب بن عباد، وألّف فيه رسالة سماها: «الكشف عن مساوئ المتنبي»، أقامها على التنقص منه، والخط من مقداره. وقد ذكر الرواة أن الصاحب كان هَيِّن المِكانة حين وفد المتنبي على ابن العميد، وكان يودّ لو قصده أبو الطيب؛ فلما تجاهله جزع وسخط، وألّف فيه هذه الرسالة؛ وذكر فيها من شعر المتنبي أمثلة للغموض والتعقيد والركاكة وقبح الألفاظ واستكراهها.

(١) تاريخ النقد الأدبي للأستاذ طه أحمد إبراهيم: ١٤٧.

وكان أبو الفتح عثمان بن جني من ناحية أخرى يرفع من مقداره؛ ويشيد من ذكره؛ وأصبح لكل منهما أشياخ.

كتاب الوساطة:

في هذه الحلّبة وذلك المعترك ألف القاضي علي بن عبد العزيز كتاب «الوساطة». قال الثعالبي في اليتيمة:

«ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة في إظهار «مساوي المتنبّي» عمل القاضي أبو الحسن كتابه «الوساطة بين المتنبّي وخصومه في شعره»؛ فأحسن وأبدع، وأطال وأطاب، وأصاب شاكلة الصواب، واستولى على الأمر في فصل الخطاب، وأعرب عن تبخّره في الأدب وعلم العرب، وتمكّنه من جودة الحفظ، وقوة النقد؛ فسار الكتاب مسير الرياح، وطار في البلاد بغير جناح، وقال فيه بعض العصريين من أهل نيسابور:

أيا قاضياً قد دنث كتبه وإن أصبحت دأزه شاحطة
كتاب الوساطة في حُسنه لعقد معاليك كالوأسطة

وقال صاحب كشف الظنون:

«أما القاضي أبو الحسن فإنه ادّعى التوسط بين خصوم المتنبّي ومحبيه، وذكر أن قوماً مالوا إليه، حتى فضّلوه في الشعر على جميع أهل زمانه، وقوماً لم يعدّوه من الشعراء وأزدرّوه غاية الازدراء حتى قالوا: إنه لا ينطق إلا بالهوى؛ ولم يتكلم إلا بالكلمة العوراء، ومعانيه كلها مسروقة. فتوسط بين الخصمين، وذكر الحق من القولين».

وليس كتاب الوساطة مختصاً بشعر المتنبّي كما يفهم من عنوانه، بل إنه عرض للأصول الأدبية التي عرفت في عصره، وحلّل أشعار القدماء والمُحدّثين؛ وأورد كثيراً من محاسنهم وعيوبهم، وأبان ما شاع فيها من تعقيد وغموض، وأخذ وسرقة، واستعارة حسنة أو رديئة، ثم عرض للبيئة وأثرها في الشعر والبداءة وما تحدّثه من جفوة في الطباع، والحضارة وما ينشأ عنها من رقة وسهولة، ثم عرض لخصوم المتنبّي وأنصاره، ومعانيه المأخوذة أو المخترعة... كل ذلك وغيره أوردّه في أسلوب واضح، وعرض شامل؛ بما ستراه حين تمضي في قراءة الكتاب.

مؤلف الكتاب:

هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني المشهور بالقاضي. ولد في جرجان سنة ٢٩٠هـ، ونشأ بها. وكانت الدولة الإسلامية قد بلغت

نُضجها العلمي، وتعددت الحواضر الإسلامية تزخرُ بالعلم والعلماء، وأصبحت الرحلة سبيلَ التعلم والدُّرس؛ فجاب الأرض، وزار العراق والشام والحجاز، ولقي مشايخ وقته وعلماء عصره، واقتبس العلوم والآداب، وصار فيها علماً وإماماً.

اشتهر بالفقه، وترجم له الشيرازي في طبقات الفقهاء، وفسر القرآن الكريم، وذكره السيوطي في طبقات المفسرين، واشتغل بالتاريخ وله فيها آثار، ثم هو شاعر مُتقن، وكاتبٌ مترسل، وناقد لودعي بصير. وفيه يقول صاحب البيئمة:

«حَسَنَةُ جُرْجَانٍ، وَفَرْدُ الزَّمَانِ، وَنَادِرَةُ الْفُلْكِ، وَإِنْسَانُ حَدَقَةِ الْعِلْمِ، وَدُرَّةُ تَاجِ الْأَدَبِ، وَفَارِسُ عَسْكَرِ الشُّعْرِ، يَجْمَعُ خَطَّ ابْنِ مُقَلَّةٍ، إِلَى نَشْرِ الْجَاحِظِ، وَنَظْمِ الْبِحْتَرِيِّ؛ وَيَنْظُمُ عَقْدَ الْإِحْسَانِ وَالْإِتْقَانِ فِي كُلِّ مَا يَتَعَاطَاهُ».

وفيه يقول الصاحب بن عباد:

إِذَا نَحْنُ سَلَّمْنَا لِكَ الْعِلْمِ كُلَّهُ فِدْعُنَا وَهَذَا الْكُتْبِ نَحْسُنُ صِدْوَرَهَا
فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتَضُونَ مَجِيئَنَا بِجَنْعٍ إِذَا نَظَّمْتَ أَنْتَ شِدْوَرَهَا

عرف له الصاحب فضله فوَلَاهُ قضاء الرِّي، وكانت حضرةُ الصاحب محطَّ رحال العلماء والشعراء والأدباء. واحتفَّ به من نجوم الأرض وأبناء الفضل وفرسان الشعر مَنْ يُربي عددهم على من اجتمع على أبواب الرشيد، مثل: أبي الحسن السَّلَامِي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي الفضل الهمداني... وغيرهم.

ولكنَّ القاضي علي بن عبد العزيز كان أثرهم عنده، وأقربهم إليه؛ لفضله ومكانته، وعلو منزلته، وشرف نفسه. قال أبو نصر التهذيبي:

سمعت القاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز يقول: انصرفتُ يوماً من دار الصاحب - وذلك قبيل العيد، فجاءني رسوله بعطر الفِطْرِ، ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان:

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي نَفْسِي لَهُ مَعِ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مَشْتَاقَةٌ
أَهْدِيكَ عِطْرًا مِثْلَ طَيْبِ ثَنَائِهِ فَكَأَنَّمَا أَهْدِي لَهُ أَخْلَاقَهُ

قال، وسمعته يقول: إنَّ الصاحب يقسم لي من إقباله وإكرامه بجرجان أكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد، وقد استعفيته يوماً من قُرْبِ تَحْقِيهِ بي، وتواضعه لي، فأشدني:

أَكْرَمُ أَخَاكَ بِأَرْضِ مَوْلِدِهِ وَأَمِدُّهُ مِنْ فَعْلِكَ الْحَسَنِ
فَالْعَزْمَ مَطْلُوبٌ وَمِلْتَمَسٌ وَأَعَزُّهُ مَا نِيلَ فِي الْوَطَنِ

وكتب إلى حسام الدولة أبي العباس تاش الحاجب يقول: «قد تقدم من وصفي للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز فيما سبق إلى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش - دام علوه - من كتبي ما أعلم أنني لم أؤدّ فيه بعض الحق، وإن كنتُ دلّلتُ على جملةٍ تنطق بلسان الفضل، وتكشفُ عن أنّه من أفراد الدّهر في كل قِسم من أقسام الأدب والعلم؛ فأما موقعه منّي فالموقع الذي تخطب فيه هذه المحاسن، وتوجبه هذه المناقب؛ وعادته معي ألا يفارقني مقيماً وظاعناً، ومسافراً وقاطناً. وقد احتاج الآن إلى مطالعة جرجان، بعد أن شرطتُ عليه تصيير المقام كالإمام، فطالبني مكائده بتعريف الأمير مصدره ومورده؛ فإنّ عنّ له ما يحتاج إلى عرّضه وجدّ من شرف إسعافه ما هو المعتاد من فضله؛ ليتعجّل انكفاؤه إليّ بما رسم - أدام الله أيامه - من مظاهرتة على ما يقدم الرحيل، ويفسح السبيل؛ من بذرقه^(١) إن احتاج إلى الاستظهار بها، ومخاطبة لبعض من في الطريق يتعرف التّهج فيها، فإن رأى الأمير أن يجعل من حظوظي الجسيمة عنده تعهد القاضي أبي الحسن بما يعجّل ردّه؛ فإنني ما غاب كالمضللّ الناشد، وإذا عاد كالغانم الواجد؛ إن شاء الله».

وقد عرف القاضي أبو الحسن للصاحب كيف ينجزيه عن وده، ويكافئه عن تحفيّه به؛ فسيرّ فيه مدائح يقول فيها الثعالبي: «أخلصت على قصد، وأتت من فزد، وما فيها إلا صوب العقل، وذوب الفضل».

ومن قوله فيه يهنته بالبؤء من المرض:

أفسي كلُّ يوم للمكارم روعة	لها في قلوب المكرمات وجيب
إذا ألمت نفس الوزير تألمت	لها أنفُسٌ تحيا بها وقلوب
ووالله لا لاحظتُ وجهاً أحبه	حياتي وفي وجه الوزير شحوب
وليس شحوباً ما أراه بوجهه	ولكنه في المكرمات ندوب
تهلّل وجهه المجد وابتسم الندى	وأصبح غُضن الفضل وهو رطيب
فلا زالت الدنيا بملكك طليقة	ولا زال فيها من ظلالك طيب



قال الحاكم في تاريخ نيسابور: «ولم يزل أبو الحسن يتقدم إلى أن ذُكر في الدنيا، وحُمل تابوته إلى جرجان فدفن بها، وصلى عليه القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد، وحضر جنازته الوزير الخطير مجد الدولة، وأبو الفضل العارض

(١) البذرة: الخفارة في الطريق.

راجلين^(١). وكان ذلك - كما يقول ابن خلكان - سنة ٣٦٦^(٢)؛ وعمره ٧٦ عاماً.

أدبه وآثاره:

أما آثاره فقد ذكر منها ياقوت في معجم الأديباء «تفسير القرآن الكريم»، وكتاب «تهذيب التاريخ»؛ نقل عنه ابن خلدون في تاريخه الكبير، وذكره الثعالبي فقال: «إنه تاريخ في بلاغة الألفاظ، وصحة الروايات، وحسن التصرف في الانتقادات»، وأورد فصلين منه في يتيمة الدهر؛ ثم كتاب «الوساطة بين المتنبى وخصومه» - وقد سبق الحديث عنه - وله ديوان شعر ذكره ابن خلكان؛ يجمع بين العذوبة والجزالة؛ وترقرق فيه شمائله السمحة الرضية، ونفسه الكريمة الأبية؛ فمن غزله الرقيق:

أفدي الذي قال وفي كَفِّهِ مثلُ الذي أشربُ مِن فيه
الوردُ قد أَيْتَعَ في وَجَنَّتِي قلتُ: فَمَيِّ باللُّثْمِ بِجَنِيهِ
ومن قوله في الحنين إلى بغداد:

أراجعة تلك الليالي كعهدِها إلى الوصلِ أم لا يُرتجى لي رجوعُها
وصحبة أحبابٍ لبست لفقدهم ثيابَ حدادٍ يُستَجِدُّ خَلِيْعُها
إذا لاح لي من نحوِ بغدادِ بارقٌ تجافت جُفُونِي واستطير هُجوعُها
سقى جانبي بغداد كلَّ غمامةٍ يحاكي دموعَ المستهامِ هُموعُها
معاهدُ من غزلانٍ أنس تحالفت لوحظها ألا يُداوى صريعُها
يحن إليها كلُّ قلبٍ كأنما يُشاد بحبّاتِ القلوبِ ربيعُها
فكلُّ ليالي عيشها زَمَنُ الصِّبَا وكلُّ فصولِ الدهرِ فيها ربيعُها
ومن قوله يصف نفسه:

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقفِ الدُّلِّ أَحَجَمَا
وما زلتُ منحازاً بعرضي جانباً من الدَّمِ أعتدُّ الصيانةَ مَغْنَمَا
إذا قيل هذا مشربٌ قلتُ قد أرى ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظمَّ
ولم أقض حقَّ العِلْمِ إن كان كلِّما بدا مطمَعٌ صيْرُته لي سُلْمَا
ولم أبتذل في خدمة العِلْمِ مُهَجَّتِي لأخدُمَ مَنْ لاقيتُ لكن لأخدَمَا
أشقى به عُرْساً وأجنيه ذلَّةً إذا فابتياغُ العَجهلِ قد كان أَحْرَمَا

(١) راجلين: سائرین علی أقدامهما.

(٢) في معجم الأديباء: جزء ١٤ صفحة ١٥: مات بالري يوم الثلاثاء لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. وكذلك في تاريخ أدب اللغة لجورجي زيدان ٢ - ٣٩٢. وفي ابن خلكان (١ - ٥٨٤): وقال غير الحاكم: توفي سنة ٣٩٢، ونقل الحاكم أثبت وأصح.

ولو أنّ أهل العِلْم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس تعظّموا
وقد أورد ياقوت في معجم الأدباء^(١)، والثعالبي في يتيمة الدهر^(٢)، طائفة من
شعره، تدور حول الفخر والمدح، والغزل وغيرها من فنون الشعر.

مخطوطة الكتاب وعملنا فيه:

وهذا الكتاب كان قد نشره الأديب الأستاذ أحمد عارف الزين بمطبعة العرفان في
صَيْدَا سنة ١٣٣١هـ، وذكر أنه اعتمد على مخطوطتين إحداهما عراقية والثانية في
المكتبة الأزهرية. ثم طبع مرة أخرى في مطبعة محمد علي صبيح.

وكلتا هاتين المطبوعتين تخلوان تماماً من الضبط، ويشيع فيهما الخطأ. ولما
شرعنا في نشر هذا الكتاب رجعنا إلى نسخة مخطوطة بالمكتبة الأزهرية برقم ١٥٢٦
أدب، وهي في نحو ١٣٠ ورقة كتبها بخطه سويقي بن أحمد العدوي سنة ١٣٢٨هـ
عن نسخة كتبت في سنة ١٣٢٦هـ، وهذه الأخيرة كتبت عن نسخة مكتوبة سنة
١٣١٦هـ وهي نسخة يشيع فيها الخطأ والتحريف وقد رمزنا إليها بالحرف (ب) كما
رمزنا إلى النسخة المطبوعة في صيدا بالحرف أ.

ثم عملنا إلى مراجعة نصوص الشعر على دواوين الشعراء وكتب الأدب،
وضبط الأعلام على المعاجم وكتب التاريخ، وشرحنا بعض ما غمض من الكلمات
والعبارات؛ لنذلل الصعاب ونساعد القارئ على متابعة أفكار المؤلف والانطلاق في
آفاقه.

ثم وضّحنا معالم الكتاب بعُنواناتٍ تقرّب مرّمَاه، وتوضّح غايته، ومعظمها
اقتباس من نصّ المؤلف؛ إذ كان الكتاب كله رسالة واحدة، ومقالة يمضي فيها
المؤلف من أول الشوط إلى نهايته، وشفعناه بالفهارس المتنوعة.

وفي هذه الطبعة الجديدة عدنا إلى الكتاب فزدنا في شرحه وضبطه وتحقيقه؛
كفاء لما لاقى الكتاب من إقبال وتشجيع.

ونرجو أن نكون قد جعلناه في صورة أدنى إلى الكمال، وأقرب إلى الإتقان؛
ونسأل الله أن يجعله عملاً نافعاً مقبولاً.

شعبان سنة ١٣٨٦ (نوفمبر سنة ١٩٦٦).

المحققان

(١) الجزء الرابع عشر صفحة ١٥ وما بعدها.

(٢) الجزء الرابع صفحة ٣ - ٢٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

التفاضل - أطال الله بقاءك - داعية التنافس؛ والتنافس سبب التحاسد^(١)؛ وأهل النقص رجُلان: رجل أتاه التقصير من قبله، وقعد به عن الكمال اختياره، فهو يساهم الفضلاء بطبعه، ويحنو على الفضل بقدر سهمه^(٢)؛ وآخر رأى النقص ممتزجاً بخلقته، ومؤثلاً في تركيب فطرته، فاستشعر اليأس من زواله، وقصرت به الهمة عن انتقاله؛ فلجأ إلى حسد الأفاضل، واستغاث بانتقاص الأمثال؛ يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته، وستر ما كشفه العجز عن عورته اجتذابهم إلى مشاركته، ووسمهم بمثل سيمته، وقد قيل^(٣):

وإذا أَرَادَ اللّهُ نَشْرَ فِضِيلَةٍ طَوَيْتَ أَسَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ

صدق والله وأحسن! كم من فضيلة لو لم تستثريها المحاسد^(٤) لم تبرخ في الصدور كامنة، ومنقبة لو لم تُزعجها المنافسة لبقيت على حالها ساكنة! لكنها برزت فتناولتها ألسنُ الحُسد^(٥) تجلّوها، وهي تظن أنها تمحوها، وتشهّرها وهي تحاول أن تسترها؛ حتى عثر بها من يعرف حقها، واهتدى إليها من هو أولى بها، فظهرت على لسانه في أحسن معرض، واكتست من فضله أزين ملبس؛ فعادت بعد الخمول نابهة، وبعد الذبول ناضرة، وتمكنت من برّ والدها فنوّعت بذكره، وقدرت على قضاء حقّ صاحبها فرفعت من قدره ﴿وَعَسَى أَنْ تَكُونُوا شَيْخًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ولم تزل العلوم - أيّدك الله - لأهلها أنساباً تتناصرُ بها، والآدابُ لأبنائها أرحاماً تتواصلُ عليها، وأدنى الشرك في نسب جوار، وأول حقوق الجار الامتعاظ له، والمحاماةُ دونه، وما من حفظ دمه أن يسفك، بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك^(٦)

(١) في ب «الحسد».

(٢) في ب «سعيه».

(٣) البيت لأبي تمام، ديوانه ص ٧٦. (٤) في أ «المحاسدة»، وما أثبتناه عن ب.

(٥) في ب «الفضاح».

(٦) في ب: «وما حفظ دمه أن يسفك بأولى من رعى حريمه أن يهتك» وفي أ «وما من حفظ دمه أن يسفك بأولى من رعى حريمه أن يهتك».

ولا حرمة أولى بالعناية، وأحقّ بالحماية، وأجدر أن يبذل الكريم دونها عِزَّه، ويمتهن في إعزازها ماله ونفسه من حُرمة العلم الذي هو رَوْتَقُ وجهه، ووقاية قدره، ومَنَارُ اسمه، ومِطْيَةِ ذِكْرِهِ.

ويَحْسَبُ عِظَمَ مزيته وعلو مرتبته يعظم حقّ التشارك فيه، وكما تجب حياطته، تجب حياة المتصل به وبسببه، وما عقوق الوالد البِرّ، وقطيعة الأخ المشفق، بأشنع ذكراً، ولا أقبح وسماً من عقوق مَنْ نَسَبَكَ إلى أكرم آبائك، وشاركك في أفخر أنسابك، وقاسمك في أزين أوصافك، ومَتَّ إليك بما هو حظك من الشرف، وذريعتك إلى الفخر.

وكما ليس من شرط صِلَة رحمك أن تَحِيفَ لها على الحق، أو تَمِيلَ في نصرها عن القصد، فكذلك ليس من حُكْمِ مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج في بابه إلى الإسراف، بل تتصرّف على حكم العدل كيف صرّفك، وتقف على رَسْمِهِ كيف وَقَفَكَ، فتتصّف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهداً لك إذا أنكرت، وتقيم الاستسلام للحجة - إذا قامت - محتجاً عنك إذا خالفت، فإنه لا حال أشدّ استعطافاً للقلوب المنحرفة، وأكثر استمالةً للنفوس المشمّزة، من توقّفك عند الشبهة إذا عرّضت، واسترسالك للحجة إذا قهرت، والحكم على نفسك إذا تحققت الدعوى عليها، وتنبه خصمك على مكامن حيلك إذا ذهب عنها؛ ومتى عرّفت بذلك صار قولك برهاناً مسلماً، ورأيك دليلاً قاطعاً، وأنهم خصمك ما علمه وتيقنه، وشكّ فيما حفظه وأتقنه، وارتاب بشهوده وإن عدلتهم المحبّة^(١)، وجب عن إظهار حُججه وإن لم تكن فيها غميمة، وتحامتك الخواطر فلم تقدم عليك إلا بعد الثقة، وهابتك الألسن فلم تعرض لك إلا في الفرط والثدرة.

وما زلت أرى أهل الأدب - منذ ألحقني الرغبة بجملتهم، ووصلت العناية بيني وبينهم - في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبّي فئتين: من مُطنب في تقريره، منقطع إليه بجملته، منحط في هواه بلسانه وقلبه، يلتقي مناقبه إذا ذُكرت بالتعظيم، ويُشيع محاسنه إذا حُكيت بالتفخيم، ويُعجب ويعيد ويكرر، ويميل على من عابه بالزراية والتقصير، ويتناول من ينفّسه بالاستحقار والتجهيل؛ فإن عثر على بيت مختل النظام، أو يبه على لفظ ناقص عن التمام التزم من نُصرة خطئه، وتحسين زلله ما يُزيله عن موقف المعتذر، ويتجاوز به مقام المنتصر. وعائب يروم إزالته عن رُتبته، فلم يسلم له فضله، ويحاول حطّه عن منزلة بؤاه إياها أدبه؛ فهو يجتهد في إخفاء فضائله، وإظهار معاييه، وتتبع سقطاته، وإذاعة غفلاته^(٢).

وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه؛ وكما أن الانتصار جانب من العدل لا

(١) في أ، ب: «المحنة» وهو تحريف. (٢) في ب «إبداء معاييه».

يسده الاعتذار؛ فكذاك الاعتذار جانب هو أولى به من الانتصار، ومن لم يفرّق بينهما وقفت به الملامة بين تفریط المقصر، وإسراف المفرط؛ وقد جعل الله لكل شيء قدراً، وأقام بين كل حديث فضلاً؛ وليس يطالب البشر بما ليس في طبع البشر، ولا يلتمس عند آدمي إلا ما كان في طبيعة ولد آدم؛ وإذا كانت الخلق مبنية على السهو وممزوجة بالنسيان؛ فاستسقاط من عزّ حاله حيف، والتحامل على من وجّه إليه ظلم.

وللفضل آثارٌ ظاهرة، وللتقدم شواهدٌ صادقة، فمتى وجدت تلك الآثار، وشوهدت هذه الشواهد فصاحبها فاضل متقدم؛ فإن عُثِر له من بعد على زلة، ووجدت له بعقب الإحسان هفوة انتجّل له عذرٌ صادق، أو رخصة سائغة؛ فإن أعوز قيل: زلة عالم، وقلّ من خلا منها، وأيُّ الرجال المهذب! ولولا هذه الحكومة لبطل التفضيل، ولزال الجرح ولم يكن لقولنا فاضل معنى يوجد أبداً، ولم نسيّم به إذا أردنا حقيقة أحداً، وأيُّ عالم سمعت به ولم يزل ويغلط! أو شاعر انتهى إليك ذكره لم يهف ولم يسقط!

أغاليط الشعراء

ودونك هذه الدواوينَ الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجدُ فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القَدْحُ فيه؛ إمَّا في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه، أو إعرابه؟ ولولا أن أهلَ الجاهلية جُدُوا^(١) بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القُدوة، والأعلام والحجة، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مُستردّلة، ومردودة منفيّة، لكنّ هذا الظنُّ الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم، ونفى الظّنة عنهم، فذهبت الخواطر في الذّبّ عنهم كلُّ مذهب، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام، وما أراك - أدام الله توفيقك - إذا سمعتَ قول امرئ القيس^(٢):

أَيَا زَاكِبًا بَلَّغَ إِخْوَانِنَا مَنْ كَانَ مِنْ كِنْدَةَ أَوْ وَايِلَ
فَنصِب «بلغ»، وقوله^(٣):

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلٍ^(٤)
فسكن «أشرب»، وقوله^(٥):

لَهَا مَثْنَتَانِ خَطَاتَا كَمَا أَكَبَّ عَلَى سَاعِدَيْهِ الثُّمُرُ^(٦)
فأسقط النونَ من «خَطَاتَا» لغير إضافة ظاهرة^(٧).
وقول لييد^(٨):

تَرَاكَ أَمَكْسِنَةَ إِذَا لَمْ أَزْضِهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ الثُّفُوسِ حَمَامُهَا

(١) يقال: جددت يا فلان (على من لم يسم فاعله)، أي صرت ذا جد والجد: الحظ.

(٢) في الضرائر ص ١٠١، غير معزو لقائل.

(٣) ديوانه ص ١٥٠.

(٤) المستحقب: المكتسب للإثم، والواغل: الداخل على القوم في شراهم.

(٥) ديوانه ص ١٤. اللسان (١٨: ٢٥٤).

(٦) البيت في وصف الفرس. والمتنتان: جنبتا الظهر، والخظاة: المكتنزة من كل شيء. والمعنى: لها متنتان كساعدي النمر المبارك في غلظهما.

(٧) هذا رأي الفراء، وقال: حذفت النون تخفيفاً. وقال الكسائي: أراد خطتا؛ فلما حرك التاء رد الألف التي هي لام الفعل، لأنها إنما كانت حذفت لسكونها وسكون التاء، فلما حرك التاء ردما فقال: «خظاتا».

(٨) شرح المعلمات للتبريزي ص ١٥٥.

فسكن «يرتبط» ولا عمل فيها لئلم . وقول طرفة^(١) :

قد رُفِعَ الفَخُّ فماذا تحذري

فحذف النون . وقول الأسدي :

كنا نرقعها وقد مُزقت واتسع السخزق على الراقع

فسكن «نرقعها» . وقال الآخر^(٢) :

تأبى قضاة أن تعرف لكم نسباً وابتنا نزار وأنتم بيضة البلد^(٣)

فسكن «تعرف» ، وقول الآخر :

يا عجباً والدهر جم عجبه من عتزي سبني لم أضربه

فرفع «أضربه» . وقول الفرزدق^(٤) :

وعض زمان يا ابن مزوان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجلف^(٥)

فضم مجلفاً . وقول ذي الخزرق الطهوي^(٦) :

يقول الحنى وأبعض المعجم ناطقاً إلى ربنا صوت الحمار الجدع^(٧)

فأدخل الألف واللام على الفعل . وقول رؤبة^(٨) :

أقفرت الوعشاء والعشاءت من بعدهم والبرق البرارث^(٩)

(١) شعراء النصرانية ص ٢٩٨ ، يصف قبرة؛ وبقية البيت :

ونسقري ماشئت أن تنسقري

(٢) نسيه صاحب اللسان إلى الراعي يهجو ابن الرقاق العاملي .

(٣) رواية اللسان (٨ : ٣٩٤) .

تأبى قضاة لم تعرف لكم نسباً وابتنا نزار فأنتم بيضة البلد

وعلى هذه الرواية لا يكون الاعتراض . وبيضة البلد : السيد .

(٤) النقاظ : ٢ - ٢٤٨ ، الضرائر : ٣٩ ، اللسان : ١٠ : ٣٧٥ .

(٥) المسحت : المهلك ، والمجلف : الذي بقيت منه بقية . ووجه الإنكار عطف مرفوع على

منصوب . قال أبو عمرو بن العلاء : لا أعرف لها وجهاً ، وكان يونس لا يعرف لها وجهاً . قيل

له : لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه . فقال : كان ينشدها على الرفع ، وأنشدنيها رؤبة

على الرفع . وتأوله النحاة على الإضمار ، فكأنه قال : «هو مجلف» .

(٦) خزانة الأدب للبغدادى : ١ - ١٠ ، اللسان (٩ : ٣٩٠) .

(٧) أراد : الذي يجده . وحمار مجده : مقطوع الأذن .

(٨) اللسان : ٢ - ٤٢٠ ، وروايته :

أقفرت الوعشاء فالعشاءت من أهلها فالبرق البرارث

(٩) في الأصول «البرارث» .

والوعث من الرمل : ما غابت فيه الأرجل والأخفاف ، والعشاءت : جمع عثمثة ؛ وهي الأرض

اللينة البيضاء ، والبرق : أماكن في بلاد العرب .

وإنما هي البراث جمع بَرَث؛ وهي الأماكن السهلة من الأرض، وروى البوارث وكأنه جمع بارثة.

وقول بعض الرّجّاز^(١)؛ أنشده المفضل:

كانت عجوزاً عُمّرتَ زمانا وهي ترى سيئها إحسانا
تعرفُ منها الأنفَ والعَيْنانَا^(٢)

ففتح النون من العينانا. وقول آخر منهم - أنشده أبو زيد:

طاروا عليهنّ قَطِرٌ عَلاها واشدُّ بَمَثْنِي حَقَبٍ حَقَواها^(٣)
ناجيةٌ وناجياً أباهَا

فرفع حَقَواها، وحَقَّه النصب، كما قد نصب أباهَا، وحَقَّه الرفع. وقول الأقيشير^(٤):

وقد بَدَا هَنتك من المئزرِ

وقول نقيع [بن]^(٥) جُرموز:

أَطَوَّفُ ما أَطَوَّفُ ثم آوي إلى أمي ويزويني النَّقِيعُ^(٦)
فأدخل الألف في أمي لغير نداء ولا ضرورة.

وغيرُ هذا مما هو أسهلُ منه قول امرئ القيس^(٧):

كأن ثبيراً من عَرَائِنِ وِئلهِ كَبيرُ أناسٍ في بِجَادِ مُزَمِّلِ^(٨)

(١) الضرائر ١٦١، شرح المفصل (٣: ١٢٩)، (٤: ١٤٣) ونسبه أبو زيد إلى رؤية، وقال ابن هشام: إنه شعر مصنوع، وقال المفضل: إنه لرجل من ضبة.

(٢) بعده:

ومنخريين أشبها ظبيانا

(٣) الحقب: حبل يشد به الرجل إلى بطن البعير، والحقو: الكشح، شرح المفصل: (٣: ١٢٩)، اللسان (٩: ٣٢٢)، ورواية اللسان:

طاروا علاهن فسل علاها

(٤) أنشده سيبويه في الكتاب (٢: ٢٩٧)، وصدرة:

رحت وفي رجلك ما فيهما

وموضوع المواخذه تسكين النون في هنك؛ وحقه التحريك.

(٥) زيادة من معجم الشعراء للمرزباني ص ١٩٥. قال: «أراه سمي النقيع بهذا البيت».

(٦) النقيع والنقيعة: المحض من اللبن يبرد. والبيت في اللسان ١٠: ٢٣٨.

(٧) شرح المعلمات للتبريزي ص ٥٢، واللسان ٣: ٣٣٠.

(٨) ثبير: جبل، والعرائن: الأوائل، والويل: ما عظم من المطر، والبجاد: كساء مخطط من أكسية الأعراب، ومزمل: ملتف.

فخفّض «مُرَمَّلاً»^(١)، وهو وصفٌ كبير. وقول الفرزدق^(٢):
 بِخَيْرِ^(٣) يَدَيَّ مَنْ كَانَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَجَارِيَهُ وَالْمَقْتُولِ لَلَّهِ صَائِمِ
 فخفّض صائم. وقول رؤبة:
 قَدْ شَفَّهَا النُّوحُ بِمَا زُولِ^(٤) صَيَّقِ
 ففتح الياء. ومثال ذلك مما يُخرج الكتاب عن عَرَضِهِ.

بعض ما كان يجري بين الرواة والشعراء

ثم استعرضت إنكارَ الأصمعي وأبي زيد وغيرهما هذه الأبيات وأشباهها، وما جرى بين عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي والفرزدق في أقواله ولحنه في قوله^(٥):
 فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى هَجْوَتُهُ وَلَكِنَّ عَبْدَ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا^(٦)
 ففتح الياء من موالي في حال الجبر، وما جرى له مع عَنبَسَةَ^(٧) الفيل النحوي حتى قال فيه:

لقد كان في معدان^(٨) والفيل شاغل لعنْبَسَةَ الرَّأوي عليّ القصائدا

وما كان القدماء يتبعونه في أشعار الأوائل من لحن وغلط وإحالة وفساد معنى؛ حتى قال البردخت^(٩) لبعض النحويين:

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل وأنف كمثل العود مما تتبّع

- (١) تأول النحاة لخفضه فقالوا: إنه على الجوار مثل قولهم: هذا جحر ضب خرب (بكسر خرب).
- (٢) النقائض: ٢ - ٥٢. (٣) في الأصول «تحير»، وصوابه من النقائض.
- (٤) المأزول: المضيق عليه.
- (٥) خزنة الأدب: ١ : ١١٤.
- (٦) المولى: الحليف، وهو: المعاهد؛ والرجل إذا كان ذليلاً يوالي قبيلة ليعتز بأفرادها، وإذا والى مولى كان أذل من الذليل. وأراد بالموالي الحضرميين، وكانوا موالي بني عبد شمس بن عبد مناف.
- (٧) هو عنبسة بن معدان الفيل، أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي، ولم يكن فيمن أخذ النحو أبرع منه، وكانت لزياد ابن أبيه فيلة ينفق عليها في كل يوم عشرة دراهم، فأقبل رجل من أهل ميسان يقال له معدان فقال: ادفعوها إلي وأكفيكم المؤونة، وأعطيتكم عشرة دراهم كل يوم فدفعوها إليه فأثرى وابتنى قصرأ، ونشأ له ابن يقال له عنبسة، فروى الأشعار وظرف وفتح، وروى شعر جرير والفرزدق، وبلغ الفرزدق أن عنبسة يفضل عليه جريراً فهجاه. (معجم الأدباء) (١٦ : ١٣٣).

(٨) في أ، ب «بغداد»، وهو تحريف والبيت وقصته في نزهة الألباء ص ٥.

(٩) البردخت الضبي: هو علي بن خالد؛ وأصل اسمه بالفارسة پرادخت؛ بمعنى الفارغ. هجا جريراً فبلغه الهجاء، وأخبر باسمه فقال: ما البردخت؟ قيل: الذي لا عمل له؛ فقال: ما كنت لأجعل له عملاً ولا شغلاً. ولم يجبه. معجم الشعراء ص ٢٨٠.

تَتَّبِعُ لِحْنًا فِي كَلَامٍ مُرَقَّشٍ وَخَلَقْتُكَ مَبْنِيًّا عَلَى اللَّحْنِ أَجْمَعِ
فَعَيْنَاكَ إِقْوَاءً وَأَنْفَكَ مُكْفَأً وَوَجْهَكَ إِطْيَاءً فَأَنْتَ الْمُرَقَّعُ^(١)

وقول الأَصْمَعِيِّ فِي الْكُمَيْتِ: جُرْمَقَانِي^(٢) مِنْ جَرَامِيْقِ الشَّامِ لَا يُحْتَجُّ بِشَعْرِهِ،
وَمَا أَنْكَرَهُ مِنْ شَعْرِ الطَّرِمَاحِ، وَلِحْنٍ فِيهِ ذَا الرُّمَّةِ.

احتجاج النحاة

ثم تصفحت مع ذلك ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج إذا أمكن: تارة يطلب التخفيف عند توالي الحركات، ومرة بالإتباع والمجاورة؛ وما شاكل ذلك من المعاذير المتمدحلة، وتغيير الرواية إذا ضاقت الحجة؛ وتبينت ما راموه في ذلك من المرامي البعيدة، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة، التي يشهد القلب أن المحرك لها، والباعث عليها شدة إعظام المتقدم، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد، وألفته النفس.

عود إلى أغاليط الشعراء

ثم عدت إلى ما عدده العلماء من أغاليطهم في المعاني، كقول امرئ القيس^(٣):

وَأَرْكَبُ فِي الرَّوْعِ خَيْفَانَةً كَسَا وَجْهَهَا شَعْرٌ مُنْتَشِرٌ^(٤)
وهذا عيب في الخيل. وقول زهير^(٥):
يَخْرُجْنَ مِنْ شَرِبَاتٍ مَاؤُهَا طَحْلٌ^(٦) عَلَى الْجَذُوعِ يَخْفَنَ الْغَمَّ وَالْغَرْقَا^(٧)

(١) الإقواء في الشعر: مخالفة القوافي في الإعراب، والإكفاء: مخالفة هجاء القوافي، والإيطاء: تكرير القافية باللفظ والمعنى.

(٢) قال في القاموس: «الجرامقة» قوم من العجم صاروا بالموصل في أوائل صدر الإسلام، الواحد جرمقاني.

(٣) ديوانه ص ١٢، واللسان: ١٠: ٤٥١.

(٤) رواية الديوان: «سعف». الخيفان من الجراد: المهازيل، وفرس خيفانة: تشبه الجراد في خفتها. قال الأصمعي: وإذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريماً. ورواية اللسان:

لَهَا ذَنْبٌ خَلْفَهَا مَسْبَطٌ

(٥) ديوانه ص ٤٠.

(٦) اللسان (١٣: ٤٢٤)، الموشح ص ٤٧.

(٧) البيت في وصف الضفادع. الشربيات: جمع شربة؛ وهي حوض صغير يتخذ حول أصل النخلة فيرويهما، والطحل: الكدر، ويريد بالجدوع جذوع النخل، قال المرزباني: «والضفادع لا تخرج من الماء لخوفها من الغمر والغرق، وإنما تطلب الشطوط لتبيض هناك وتفرخ».

والضفادع لا تخاف شيئاً من ذلك . وقول سلمة بن الخرشب^(١) :

إذا كان الحزامُ لِقْضَرَيْنِهَا أماما حيث يَمْتَسِكُ البَرِيمُ^(٢)

يقول : إن الحزامَ يقرب في جولانه إذا أكثر من عدوه فيصير أمام القصريين .

قال الأصمعي : أخطأ في الوصف ؛ لأن خيرَ جزِي الإناث الخضوع ، وإنما

يُختار الإشراف^(٣) في جَزِي الذكور ، فإذا اختضعت تقدّم الحزام ، كما قال بشر بن أبي خازم^(٤) :

نُسُوفٍ^(٥) لِلحِزَامِ بِمِرْفَقَيْنِهَا يَسُدُّ خَوَاءَ طُبَيِّئِهَا الغُبَارُ^(٦)

وقد ساعد مُتَمِّمٌ بن نُؤيرة على هذا الوصف سلمة فقال^(٧) :

وكأنه قَوَتْ الجَوَالِبُ جَانِئاً رِثْمٌ تَضَايِفُهُ كِلابٌ ، أَخْضَعُ^(٨)

فوصف الذكر بالخضوع ، وإنما يُختار له الاشتِراف . وكقول الجعدي :

كأن تواليهما بالضحى نواعم جَعْلٍ من الأثاب^(٩)

والجَعْلُ : صغار النخل ، وإنما المراد الكبار ، وبه يصحُّ الوصفُ فيما زعموا .

وقول أبي ذؤيب يصف الفرس^(١٠) :

قَصَرَ الصَّبُوحَ لها فَشَرَّجَ لَحْمَها بالثِّي فهي تَتَوَخَّعُ فيها الإضْبَعُ^(١١)

(١) شرح المفضليات : ١ - ٣٨ .

(٢) يصف فرسه . القصريان : مثنى القصري ، هي الضلع ، والبريم : خيط تشده المرأة في وسطها . أراد أنها تلتفت إذا جال حزامها واضطرب لكثرة عدوها ، فصار أمام قصرييها في مثل الموضع الذي تشده فيه المرأة على حقوها .

(٣) الخضوع والإشراف : ضربان من سير الخيل .

(٤) المفضليات (٢ : ١٤٣) ، اللسان (٨ : ٢٧٠) ، والبيت في وصف فرس .

(٥) في أ ، ب «تسوق» ، وهو تحريف .

(٦) تنسف الحزام : تدفعه . الخواء : الفرجة . الطبي من الفرس ؛ بمنزلة الضرع من الشاة والبقرة ؛ يقول : إذا امتلأت عدوا ستر الغبار ما بين طبييها .

(٧) المفضليات (١ : ٤٩) ، اللسان (١ : ٤٣) .

(٨) فورت : فاتتا الجوالب ؛ مصدر وقع حالاً ؛ والجوالب : من قولهم : جلب الفارس على الفرس إذا رصد له قوماً في طريقه يصيحون به في الرهان . جانئاً : مكباً ، يقال : جنأ في عدوه ، إذا ألح وأكب . الرثم : الطبي الخالص البياض . تضايفه الكلاب : أخذن بضيفيه - بكسر الصاد - أي بناصيته ، جئنه من هاهنا وهاهنا . وهن كلاب الصائد . أخضع : متطامن الرقبة ، وهو من الخضوع . وتقدير البيت : كأنه رثم أخضع تضايفه كلاب . شرح المفضليات (١ : ٤٩) .

(٩) الأثاب : شجر ينبت في بطون الأودية في البادية .

(١٠) المفضليات (٢ : ٢٢٧) ، اللسان (٣ : ١٣٠) .

(١١) قصر الصبورح لها : جعل صبورحها اللبن دون الماء ، وشرح اللحم : خالطه الشحم . والثي =

قال الأصمعي: حمارُ القصار خيرٌ من هذا، وإنما يُوصف الفرسُ بصلابة اللحم.

وقول أبي التجم:

تَسْبَحُ أَخْرَاهُ وَيَطْفُو أَوْلَاهُ

واضطراب مآخير الفرس قبيح. وقول المسيّب بن علس^(١):

وَكَأَنَّ غَارِبَهَا رُبَاوَةٌ مَسْخَرِمٌ وَتَمُدُّ ثِنِّي جَدِيلَهَا بِشِرَاعٍ^(٢)

أراد تشبيه العنق بالدقل^(٣) فغلط، كما غلط طرفة في السكّان فقال:

كُسْكَانٌ بُوصِيٍّ بِدَجَلَةٍ مُضْعِدٍ^(٤)

وإنما يريد الدقل. وقول امرئ القيس^(٥):

إِذَا مَا الثَّرِيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرَّضَ أَثْنَاءِ الْوِشَاحِ الْمُفْصَلِ

والثريا لا تتعرض، وإنما تتعرض الجوزاء. وقول رؤبة:

كَنْتُمْ كَمَنْ أَدْخَلَ فِي جُحْرِ يَدَا فَأَخْطَأَ الْأَفْعَى وَلا قَى الْأَسْوَدَا^(٦)

فجعل الأفعى دون الأسود، وهي أشدُّ نكاية منه. وقول زهير^(٧):

كَأَحْمَرٍ عَادِثٍ تَرْضِعُ فَتْفِطِمُ

= الشحم. وتشوخ فيها الإصبع، أي لو أدخل أحدهم إصبعه في لحمها لدخل لكثرة لحمها وشحمها.

(١) شرح المفضليات (٢: ٦٠).

(٢) الغارب: ما بين السنام والعنق. والرباوة: منقطع الجبل حيث استدق. والمخرم: مقطع أنف الجبل، والجديل: الزمام. وثنيه: ما اثني منه، أراد تمد جديدها بعنق طويلة، فشبها بشراع السفينة.

(٣) الدقل: خشبة طويلة في وسط السفينة يمد عليها الشراع.

(٤) صدره:

وأُتْلِعَ نَهَاظٍ إِذَا صَعِدَتْ بِهِ

المعلقات بشرح التبريزي ص ٦٩.

السكّان: ذنب السفينة. والبوصي: نوع من السفن، أو هو الملاح.

(٥) ديوانه ص ٢٥.

(٦) الأنفى: حية عريضة رقشاء دقيقة العنق، لا تنفع معها رقية ولا ترياق. والأسود حية خبيثة تسليخ جلدها كل عام، وتسمى أسود سالخ.

(٧) في وصف الحرب. وصدره:

فَتَنْتِجُ لَكُمْ غُلْمَانَ أَشَامَ كُلِّهِمْ

المعلقات بشرح التبريزي ص ١١٣.

وإنما هي أحمَرُ ثمود^(١). وقول ليلي. ويروى لَحْمَيْد:

لما تخايلت^(٢) الحُمُولَ حسبتها دُوماً بأَيْلَةَ ناعماً مَكْمُوماً^(٣)
والدُّومُ لا أكمام له.

هذا ما يعرفونه صباحاً ومساءً. ويمارسونه على طول الدهر؛ فدَغ ما يخفى عليهم ويبتعد عن أبصارهم. كقول أبي ذؤيب في الدُّرَّة^(٤):

فجاء بها ما شئت من لَطْمِيَّةٍ يدور الفرات حولها ويموج
فالفرات هو العذب، والدرُّ، لا يوجد إلا في الملح. وقول الآخر^(٥):
فيه الرماح وفيه كلُّ سابغةٍ جدلاءٍ مُحَكِّمةٍ من نَسِجِ سَلامٍ^(٦)
وقول الآخر^(٧):

وكلُّ صَمُوتٍ نَثَلَةٌ تُبَعِيَّةٌ ونَسِجٌ سُلَيْمٍ كلُّ قَضَاءٍ ذَائِلٍ^(٨)
أرادا داود فغلطاً إلى سليمان، ثم حرِّفاً اسمه فقال أحدهما: سَلام، وقال الآخر: سُلَيْم، كما قال الآخر:

والشيخ عثمان بن عف

أراد ابن عقان. وقال الآخر:

ومحورٍ أخلص من ماء اليلب^(٩)

(١) أحمر ثمود: لقب قدار بن سالف، عاقر ناقة صالح، وإنما قال: كأحمر عاد لإقامة الوزن لم يمكنه أن يقول كأحمر ثمود، أو وهم فيه.

(٢) في المزمهر (٢: ٣١٣): «لما تحاملت».

(٣) قال السيوطي: في المزمهر: الدوم: شجر المقل، والمكموم لا يكون إلا النخل، فظن أن الدوم هو النخل.

(٤) اللسان ١٦: ١٧، وروايته:

فجاء بها ما شئت من لطمية تدور البحار فوقها وتموج
واللطمية: هي الدرة.

(٥) هو الحطينة، والبيت ورد في اللسان - مادة سلم بهذه الصورة، وورد أيضاً فيه - مادة جدل:

فيه الجياد وفيه كل سابغة

(٦) السابغة: الدرع الوسيعة. ودرع جدلاء: محكمة النسيج.

(٧) هو النابغة الذبياني. ديوانه ص ٦٤.

(٨) الصموت من الدرور: اللينة المس. ونثلة: واسعة. وتبعية: منسوبة إلى تبع وهو ملك اليمن.

والقضاء: المحكمة. ودرع ذائل: طويلة الذيل.

(٩) في الأصل: ومحور من ماء اليلب. وما أثبتناه عن اللسان (٢: ٣٠٦).

جعل اليلب حديداً وإنما هي سيور؛ كما قال غيره:
 لم تذر ما نسج اليرندج قبلها^(١)
 [فإنه ظن أن اليرندج نسج^(٢)]، وإنما اليرندج جلود. وقول الآخر^(٣):
 بريئة لم تاكل المرققا ولم تذق من البقول الفستقا
 فجعل الفستق بقلا.

وأشبه ذلك مما يكثر تعقبه، ولم يذكر إلا اليسير منه فيما نريده - شككت في
 أن نفع هذا الحكم عام، وجدواه شامل، وأن المتقدم يضرب فيه بسهم المتأخر،
 والجاهلي يأخذ منه ما يأخذ الإسلامي، وأنه قول لا حظ له في العصبية، ولا نسب
 بينه وبين التحامل.

وليس يجب إذا رأيتني أمدح مُحدثاً أو أذكر محاسن حَضْرِي أن تظن بي
 الانحراف عن متقدم، أو تُنسبني إلى الغص من بدوي؛ بل يجب أن تنظر مغزاي فيه،
 وأن تكشف عن مقصدي منه، ثم تحكم علي حكم المنصف المتثبت، وتقضي قضاء
 المُقْسِط المتوقف.

(١) تمامه:

وَدَرَسَ أَعْوَصَ دَارِسَ مَتَّخِذًا

(٢) زيادة من اللسان (٣: ١٠٨).

(٣) هو أبو نخيلة. اللسان ٢: ١٨٤.

الشعر

أنا أقول - أيدك الله - إن الشعر علمٌ من علوم العرب يشترك فيه الطبعُ والرّواية والذكاء، ثم تكون الدُّرّية مادةً له، وقوة لكل واحد من أسبابه؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز؛ وبقدر نصيبه منها تكون مرّتبته من الإحسان.

القدماء والمحدثون

ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث، والجاهلي والمُخَضَّم^(١)، والأعرابي والمولّد؛ إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمّس، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر؛ فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلّة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية؛ ولا طريق للرواية إلا السمع؛ وملاك الرواية الحفظ، وقد كانت العرب تروي وتحفظ، ويُعرف بعضها برواية شعرٍ بعض؛ كما قيل: إن زهيراً كان راوية أوس، وإن الحُطَيْئَةَ راوية زهير، وإن أبا ذؤيب راوية ساعدة بن جُوَيّة؛ فبلغ هؤلاء في الشعر حيث تراهم، وكان عبيد راوية الأعشى ولم تُسمع له كلمة تامة، كما لم يسمع لحسين راوية جرير، ومحمد بن سهل راوية الكُمَيْت، والسائب راوية كُثَيْب؛ غير أنها كانت بالطبع أشدّ ثقة وإليه أكثر استئناساً؛ وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللغة واللسان، وأنها سواء في المنطق والعبارة، وإنما تُفَضّل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة. ثم تجد الرجل منها شاعراً مُفلقاً، وابن عمه وجارَ جنباه ولصيقَ طُئبه بكياً مُفحماً^(٢)؛ وتجد فيها الشاعرَ أشعرَ من الشاعر، والخطيبَ أبلغَ من الخطيب؛ فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحِدّة القريحة والفطنة!

وهذه أمور عامة في جنس البشر لا تخصيص لها بالأغصّار، ولا يتصف بها دهرٌ دون دهر. فإن قلت: فما بال المتقدمين حُصّوا بمتانة الكلام وجزالة المنطق وفخامة

(١) شاعر مخضرم: أدرك الجاهلية والإسلام مثل لبيد. قال ابن بري: أكثر أهل اللغة على أنه مخضرم (بكسر الراء) لأن الجاهلية لما دخلوا في الإسلام خضرموا أذان إبلهم، ليكون علامة لإسلامهم إن أغير عليها أو حوربوا، ويقال لمن أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم. وأما من قال: مخضرم (بفتح الراء) فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر إلى الإسلام.
اللسان (٥: ٧٥).

(٢) البكي: من قل كلامه خلفة. والمفحم: من لا يقدر أن يقول شعراً.

الشعر، حتى إن أعلّمنا باللغة وأكثرنا رواية للغريب لو حفظ كل ما ضمّت الدواوين المروية، والكتب المصنفة من شعر فحل، وخبر فصيح، ولفظ رائع - ونحن نعلم أن معظم هذه اللغة مضبوط مروياً، وجُلّ الغريب محفوظ منقول - ثم أعانه الله بأصحّ طبع وأثقب ذهن وأنفذ قريحة، ثم حاول أن يقول قصيدة، أو يقرض بيتاً يقارب شعر امرئ القيس وزهير، في فخامته وقوة أسره، وصلابة معجّمه لوجده أبعده من العيوق^(١) مُتناولاً، وأصعب من الكبريت الأحمر مطلباً؟ قلت: أحلتك على ما قالت العلماء في حمّاد^(٢) وخلف^(٣) وابن دأب^(٤) وأضرابهم، ممن تحلّ القدماء شعره فاندمج في أثناء شعرهم، وغاب في أضعافه، وضعب على أهل العناية إفراذه وتعرّس، مع شدة الصعوبة حتى تكلف فليّ الدواوين واستقراء القصائد فنفي منها ما لعله أمتن وأفخم، وأجمع لوجوه الجودة وأسباب الاختيار مما أثبت وقيل^(٥) وهؤلاء محدثون حضريون، وفي العصر الذي فسد فيه اللسان، واختلطت اللغة وحُظِر الاحتجاج بالشعر، وانقضى من جعله الرواة ساقّة الشعراء.

فإن قلت: فما بال هذا النّمط والطريقة، وهذه المنقبة والفضيلة ينفرد بها الواحد في العصر وهو مشحون بالشعر، وكان فيما مضى يشمل الدّهماء ويعم الكافة؟ قلت لك: كانت العرب ومن تبعها من السلف تجري على عادة في تفخيم اللفظ وجمال المنطق لم تألف غيره، ولا أسها سواه، وكان الشعر أحد أقسام منطقتها، ومن حقّه أن يُختص بفضل تهذيب، ويُفرد بزيادة عناية، فإذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة، وانضاف إليها التعمّل والصنعة خرج كما تراه فحماً جزلاً قوياً متيناً.

اختلاف الشعر باختلاف الطبائع

وقد كان القوم يختلفون في ذلك، وتبّان في أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويضلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعّر منطوق غيره؛ وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق؛ فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودّماثة الكلام

- (١) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدمها.
- (٢) هو خلف بن حيان. أصله من خراسان، من سبي قتيبة بن مسلم؛ وكان من أفرس الناس لبيت شعر؛ وكان شاعراً يحمل الشعر على لسان العرب، وينحله إياهم. توفي سنة ١٨٠. فهرس ابن النديم ص ٧٤.
- (٣) هو حماد بن سابور؛ من سبي الديلم. كان أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها؛ وهو الذي جمع السبع الطوال. توفي سنة ١٥٥. وفيات الأعيان (١: ١٦٤).
- (٤) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب. كان من رواة الأخبار والأشعار وحفاظهم؛ وكان يضعف في روايته. وكان في المدينة يضع الشعر وأحاديث السمير وكلاماً ينسبه إلى العرب، فسقط وذهب علمه؛ وحضيت روايته. توفي سنة ١٧١. المزهر (٢: ٢٥٩)، معجم الأدباء (١٦: ١٥٢).
- (٥) كذا في ب، وفي أ: «قيل».

بقدر دَمَائَةِ الْخَلْقَةِ وَأَنْتَ تَجِدُ ذَلِكَ ظَاهِرًا فِي أَهْلِ عَصْرِكَ وَأَبْنَاءِ زَمَانِكَ، وَتَرَى الْجَافِي الْجِلْفَ مِنْهُمْ كَثْرَ الْأَلْفَاظِ، مَعْقِدَ الْكَلَامِ، وَغَرَّ الْخَطَابِ؛ حَتَّى إِنَّكَ رُبَّمَا وَجَدْتَ أَلْفَاظَهُ فِي صَوْتِهِ وَنَغْمَتِهِ، وَفِي جُرْسِهِ وَلَهَجَتِهِ. وَمِنْ شَأْنِ الْبِدَاوَةِ أَنْ تُحْدِثَ بَعْضَ ذَلِكَ؛ وَلَأَجْلِهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ بَدَأَ جَفَا». وَلِذَلِكَ تَجِدُ شِعْرَ عَدِيِّ - وَهُوَ جَاهِلِي - أَسْلَسَ مِنْ شِعْرِ الْفَرَزْدَقِ وَرَجَزَ رُؤْبَةَ وَهَمَّا أَهْلَانِ؛ لِمَلَاظِمَةِ عَدِيِّ الْحَاضِرَةِ وَإِيطَانِهِ الْرِيفِ، وَبُعْدِهِ عَنِ جِلَافَةِ الْبَدْوِ وَجَفَاءِ الْأَعْرَابِ، وَتَرَى رِقَّةَ الشِّعْرِ أَكْثَرَ مَا تَأْتِيكَ مِنْ قِبَلِ الْعَاشِقِ الْمَتِّيمِ، وَالغَزَلِ الْمَتِهَالِكِ؛ فَإِنَّ اتَّفَقَتْ لَكَ الدَّمَائَةُ وَالصَّبَابَةُ، وَانْضَافَ الطَّبَعُ إِلَى الْغَزْلِ؛ فَقَدْ جُمِعَتْ لَكَ الرِّقَّةُ مِنْ أَطْرَافِهَا.

أثر التحضر في الشعر

فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأذب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلب موقعا؛ وإلى ما للعرب فيه لغات فاقصروا على أسلسها وأشرفها؛ كما رأيتهم يختصرون [الألفاظ] ^(١) الطويل؛ فإنهم وجدوا للعرب فيه نحو من ستين لفظة؛ أكثرها بشع ^(٢) شنع؛ كالعسنت والعنطنط والعشنتق، والجسرب والشوقب والسلب والشودب، والطاط والطوط، والقاق والقوق ^(٣)، فنبذوا جميع ذلك وتركوه، واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان، وقلة نبؤ السمع عنه. وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحو ببعض اللحن، وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة، وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق، فانتقلت العادة، وتغير الرسم، وانتسخت هذه السنة، واحتدوا بشعرهم هذا المثال، وترفقوا ما أمكن، وكسوا معانيهم اللفظ ما سنع من الألفاظ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين، فيظن ضعفا، فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا، وصار ما تخيلته ضعفا رشاقة ولطفا؛ فإن رام أحدهم الإغراب والاقداة بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد تكلف، وأتم تصنع؛ ومع التكلف المقت، وللنفس عن التصنع نفرة، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق، وإخلاق الديباجة.

(١) زيادة يقتضها السياق.

(٢) في ب: «أكثرها فيه شنع».

(٣) وردت هذه الألفاظ في الأصلين محرفة ومصحفة، فأصلحناها من لسان العرب وفقه اللغة للشعالي. وكل هذه الألفاظ ترادف الطويل.

تكلف أبي تمام وتفاوت شعره

وربما كان ذلك سبباً لطُمس المحاسن؛ كالذي نجده كثيراً في شعر أبي تمام، فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه، فحصل منه على توغير اللفظ، فقبح^(١) في غير موضع من شعره، فقال^(٢):

فكأنما هي في السَّماع جنادِلٌ وكأنما هي في القلوب كواكِبُ

فتعسف ما أمكن، وتغلغل في التصعب كيف قدر، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع، فتحمله من كل وجه، وتوصل إليه بكل سبب، ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعاني الغامضة، وقصد الأغراض الخفية، فاحتمل فيها كل عث ثقيل، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل؛ فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر، وكدُّ الخاطر، والحمل على القريحة؛ فإن ظفر به فذلك من بعد العناء والمشقة، وحين حَسَره^(٣) الإعياء، وأوهن قوته الكلال. وتلك حال لا تهش فيها النفس للاستماع بحسن، أو الالتذاذ بمستظرف؛ وهذه جريرة التكلف!

ولست أقول هذا غصاً من أبي تمام، ولا تهجيناً لشعره، ولا عصبية عليه لغيره. فكيف وأنا أدينُ بتفضيله وتقديمه، وأتحلُّ موالاته وتعظيمه، وأراه قبلة أصحاب المعاني، وقُدوة أهل البديع! لكن ما سمعتني أشرطه في صدر هذه الرسالة أنه يحظر إلا إتباع الحق وتحري العدل والحكم به لي أو علي. وما عدوت في هذا الفصل قضية أبي تمام، ولا خرجت عن شرطه أن يقول في يوسف السراج شاعر مصر في وقته^(٤):

فلو نَبِشَ المقابر عن زُهَيْرٍ لعول^(٥) بالبكاء وبالنَّحِيبِ
متى كانت معانيه^(٦) عيالا على تفسير بُقراط الطيبِ
وكيف ولم يزل للشعر ماء يرفُّ عليه ربحانُ القلوبِ

(١) في أ «فتبيح».

(٢) ديوانه ص ٢٩.

(٣) حسره: أكله وأضعفه.

(٤) ديوانه ص ٤٨٩.

(٥) عول: رفع صوته بالبكاء: ورواه الديوان «الصرح».

(٦) رواية الديوان «قوافيه».

فخبرني هل تعرفُ شعراً أوحج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس من قوله (١):
 جَهْمِيَّةُ الأوصافِ إلا أنهم قد لَقَّبُوها جَوْهَرَ الأشياءِ (٢)
 وقوله (٣):

يومَ أفاض جوى أغاصَ تَعَزِّيَا خاض الهوى بَحْرِي حِجَاهِ المَزِيدِ
 وأيُّ شعرٍ أقلَّ ماءً، وأبعد من أن يَرِفَ عليه رِيحانُ القلوبِ من قوله (٤):

خَشُنتُ عليه أخت بني الحُشَيْنِ وأنجح فيك قول العاذِلينِ
 ألم يُثْنَعك فيه الهجرُ حتى بَكَلتُ (٥) لقلْبِهِ هجراً يَبِينِ (٦)
 فهل رأيت أغثَ من «بكلت» في بيت نسيب! ومن قوله (٧):

أطلالَ الرسومِ لَطالَما قد أطلتَ منك أجيادُ الظباءِ
 بها شُغِلت دبابيجُ (٨) البهاءِ فضخوةٌ وجهها نشر الضَّحاءِ
 لنا أيام لم تُذمِ الليالي بذكر البينِ عزَّزِينِ الصفاءِ
 فأضحى البينُ لا يرضى لَطْرُفي نواه بالسبكيِّ من السبكاءِ
 لقد طلع الفراقُ على ابنِ صَبْرِي فأثكله جلابيبُ العزَّاءِ
 فالعجب كلُّ العجب من خاطرٍ قدح بمثل قوله (٩):

أَيَّامَنَا ما كُنْتَ إلا مَواهِبَا وكنْتَ بإسعافِ الحبيبِ حَبابِبا

(١) ديوانه ص ٣.

(٢) يصف الخمر. والجهمية في الأصل: فرقة دينية تنسب إلى جهم بن صفوان؛ ومذهبهم أنه لا فعل للمخلوقين؛ وإنما الفاعل هو الله سبحانه؛ فكانهم يصفون المخلوقات بالضعف. فهو يعيب للخمر التي صدق عليها نعت الجهمية بالضعف أن يسميها غيرهم جوهر الأشياء؛ أي أصلها.

(٣) ديوانه ص ١١١.

(٤) ديوانه ص ٣٢١؛ الموشح ص ٣١٠.

(٥) بكل: خالط، ورواية الديوان: «قرنت».

(٦) قال المرزباني في الموشح: «ومن ابتداءات أبي تمام المذمومة:

خَشُنتُ عليه أخت بني حُشَيْنِ

وهذا الكلام لا يشبه خطاب النساء في مغازلتهم، وإنما أوقعه فيه محبته هنا للتجنيس».

(٧) لم نثر عليها في نسخ الديوان.

(٨) في الأصل: «دبابيج»، ولم نجد لها في كتب اللغة، فأصلحناها كما رأينا، لأن الدبج النقش، والدبباج يجمع على دبابيج ودبابيج. المعرب ١٤٠، ١٤٣، الجمهرة (١: ٢٧)، اللسان (٣: ٨٦).

(٩) ديوانه ص ١٦.

سُغْرِبَ تَجْدِيداً لَعَهْدِكَ فِي الْبُكَاءِ
وَمَعْتَرِكَ لِلشُّوقِ أَهْدَى بِهِ الْهُوَى
كَوَاعِبِ زَارَتْ فِي لِيَالٍ قَصِيرَةٍ
سَلَبْنَ غِطَاءَ الْحُسْنِ عَنْ حُرِّ أَوْجِهِ
وَجِوَةٌ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ فِيهَا كَوَاكِبُ
وَقَوْلُهُ (٢):

وَلَقَدْ أَرَاكَ فَهَلْ أَرَاكَ بِغَبْطَةِ
أَعْوَامٍ وَضَلَّ كَانَ يُنْسِي طَوْلَهَا
ثُمَّ انْبَرَتْ أَيَّامٌ هَجَرَ أَرْدَقَتْ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونَ وَأَهْلَهَا
وَالْعَيْشُ غَضُّ وَالزَّمَانُ غِلَامٌ
ذَكَرَ النَّوَى، فَكَأَنَّهَا أَيَّامٌ
بِجَوَى (٣) أَسَى، وَكَأَنَّهَا أَعْوَامٌ
فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهَا أَحْلَامٌ

كيف يتصور فيه ذلك الكلام الغث! وأعجب من ذلك شاعر يرى هذه العُزْرَ في ديوانه كيف يرضى أن يقرن إليها تلك العُزْر! وما عليه لو حذف نصف شعره، فقطع السنَّ العيب عنه، ولم يشرع (٤) للعدو باباً في ذمّه!

اختلاف شعر أبي تمام في القصيدة الواحدة

ومن جنائيات هذا الاختيار على أبي تمام وأتباعه أن أخذهم بينا هو مُسْتَرْسِلٌ فِي طَرِيقَتِهِ، وَجَارٍ عَلَى عَادَتِهِ يَخْتَلِجُهُ (٥) الطَّبَعُ الْحَضْرِي، فيعدل به متسهلاً، ويرمي بالبيت الخنث، فإذا أنشد في خِلَالِ الْقَصِيدَةِ، وَجِدَ قَلْقًا بَيْنَهَا نَافِرًا عَنْهَا؛ وَإِذَا أَضِيفَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ وَأَمَامَهُ تَضَاعَفَتْ سُهُولَتُهُ، فَصَارَتْ زَكَكَةً. وربما افتتح الكلمة وهو يجري مع طبعه، فينظم أحسن عقْد، ويختال في مثل الروضة الأنيقة، حتى تعارضه تلك العادة السيئة فيتسنم أوعز طريق، ويتعسف أحسن مَرْكَب، فيطمس تلك المحاسن، ويمحو طلاوة ما قد قدّم؛ كما فعل أبو تمام في كثير من شعره؛ ومنه قوله (٦):

لَوْ حَارَ (٧) مَرْتَادُ الْمَنِيَةِ لَمْ يَجِدْ
قَالُوا الرَّحِيلَ؛ فَمَا شَكَّكَتْ بِأَنَّهَا
إِلَّا الْفِرَاقَ عَلَى النَّفْسِ دَلِيلًا
فِي الْحُبِّ أَحْرَى أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا
الصَّبْرُ أَجْمَلُ غَيْرَ أَنْ تَلْذَا

(١) نجل: جمع نجلاء. وهي العين المتسعة.

(٢) ديوانه ص ٢٧٩.

(٣) في الديوان: «نحوي».

(٤) شرعت الباب إلى الطريق؛ أنفذته إليه، وشرع الباب: أفضى إلى الطريق، وأشرعه إليه.

(٥) اختلجه: جذبته، وفي الأصل: حتى يخلججه.

(٦) ديوانه ص ٢٤٢.

(٧) رواية الديوان: «جاء».

أَتظنني أجد السَّبِيلَ إلى العَزا
رُدُّ الجَمُوحِ الصَّعْبِ أسهلُّ مطلباً
ذَكَرْتُكُمْ الأنواءَ ذَكَرَى بَعْضُكُمْ^(١)
إنِّي تأملت النوى فوجدتها
ثم عدل عن النسب فقال:

لو جاز سلطان القنوع وحكمه
من كان مزعى عزمه وهمومه
فهو كما تراه يعرض عليك هذا الديباج الخسرواني، والوشي المنمنم، حتى
يقول:

لأله ذرُّك أيُّ مغبر قفرة
أوما تراهها لا تراهها هزة
لا يوحشُ ابنَ البيضة الإخفيلاً^(٢)
تَشَأَى العيونَ تَعَجْرُفًا وذُميلاً^(٣)

فنعص عليك تلك اللذة، وأحدث في نشاطك فترة؛ وهذه الطريقة أحد ما نُعي
على أبي الطيب، وسنقول فيها وفي غيرها إذا استوفينا هذه المقدمة. ولو لم تكن هذه
الآبيات متناسقة مقترنة، ولم يكن يجمعها قصيدة، وتسمع في حال واحدة لكان أخفى
لعيها، وأستر لشيئها؛ فإنك تعلم بُعد ما بين قوله:

كادت لعرفان النوى ألفاظها
من رقة الشكوى تكون دُموعاً
وقوله^(٤):

هن البجاريُّ يا بُجَيْرُ
أهدى لها الأبوس الغوير
وقوله^(٥):

أهيس أليس لَجاء إلى همم
تغرق الأسد في آذيها أليسا^(٦)
لكنها افتقرت فغابت، ولم تقترن فتعرب وتُشهر.

(١) في ديوانه: «بعضهم».

(٢) خرج إلى صفة الناقة بغير ذريعة إلى الخروج. وابن البيضة: الظليم. والإخفيل: الكثير الإجمال.

(٣) التعجرف: النشاط في السير. والذميل: نوع منه. وتشأى: تسبق.

(٤) الموازنة بين أبي تمام والبحثري ص ١١.

(٥) ديوانه ص ١٥٣.

(٦) الأهيس: الشجاع، والأليس مثله. والليس: جمع أليس؛ وهو الشجاع الذي لا يبالي الحرب ولا يروعه. والآذي: الموج.

الأسلوب عند المؤلف

ومتى سمعتني أختارُ للمحدث هذا الاختيار، وأبعثه على الطبع، وأحسن له التسهيل؛ فلا تظنن أنني أريدُ بالسُّمَّح السُّهْلَ الضعيفَ الركيك، ولا باللطيف الرشيق الخيِّتَ المؤنث؛ بل أريدُ التَّمَطَّ الأوسط؛ ما ارتفع عن الساقط السُّوقِيَّ، وانحط عن البدويِّ الوحشيِّ، وما جاوز سَفْسَفَةَ نُضْرٍ ونُظْرَائِهِ، ولم يبلغ تَعَجْرُفَ هِمِّيَّانِ بنِ قُحَافَةَ^(١) وأضرابه؛ نعم، ولا أمركُ بإجراء أنواع الشعر كلِّه مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعة مذهبٍ بعضه؛ بل أرى لك أن تُقسِّم الألفاظ على رُتَبِ المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك؛ ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك؛ بل ترتب كلاً مرتبته وتوقيه حقّه، فتلطف إذا تغزلت، وتُفخِّم^(٢) إذا افتخرت، وتتصرّف للمديح تصرّف مواقعه؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمُدَام؛ فلكل واحد من الأمرين نَهْجٌ هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه.

وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصود على الشعر دون الكتابة، ولا بمختصّ بالنظم دون النثر؛ بل يجب أن يكون كتابك في الفتح أو الوعيد خلاف كتابك في التشوق والتهنئة واقتضاء المواصلة، وخطابك إذا حدّرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت وميّت.

فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قرّبت معانيه وسهّل حفظه؛ وأسرع علوّقه بالقلب ولُصوقه بالنفس؛ فأما القذف والإفحاش فسبب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم.

(١) هميان بن قحافة: أحد بني عامر؛ راجز إسلامي محسن؛ عاش في الدولة الأموية.

(٢) يقال: فخم الكلام، إذا عظمه، ومنطق فخم: جزل.

المطبوعون من الشعراء

وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب، وعِظَمَ غَنَائِهِ فِي تحسین الشعر، فتصفح شعراً جريراً وذی الرُمة في القدماء، والبحترى في المتأخرين، وتتبع نسيب متیمی العرب، ومتغزلي أهل الحجاز؛ كعمر، وكثير، وجميل، ونصيب، وأضرابهم، وقسّمهم بمن هو أجود منهم شعراً، وأفصح لفظاً وسبكاً؛ ثم انظر واحكم وأنصف، ودعني من قولك: «هل زاد على كذا!» و«هل قال إلا ما قاله فلان!» فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم، وإنما تفضي إلى المعنى عند التفتيش والكشف. وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمّل والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه والعنف به؛ ولست أعني بهذا كل طبع، بل المهذب الذي قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلّته الفطنة، وألهم الفصل بين الرديء والجيد، وتصوّر أمثلة الحسن والقبح.

السهل الممتنع من شعر البحترى

ومتى أردت أن تعرف ذلك عياناً، وتستثبته مواجهة، فتعرف فرق ما بين المصنوع والمطبوع، وفضل ما بين السّمح المنقاد والعصبي المستكبره فاعود إلى شعر البحترى، ودع ما يصدر به الاختيار، ويعد في أول مراتب الجودة، ويتبين فيه أثر الاحتفال، وعليك بما قاله عن عفو خاطره، وأول فكرته، كقوله^(١):

ألام على هواك وليس عدلاً	إذا أحببت مثلك أن ألاما ^(٢)
أعيدي في نظرة مستثيب	توخى الأجر أو كره الألاما
ترني كبداً محرقة وعينا	مؤرقة وقلبا مستهما
تناءت دار علوة بعد قزب	فهل ركب يبلغها السلاما!
وجدد طيقها عثبا علينا	فما يغتادنا إلا لماما
وربت ليلة قدبت أسقى	بعينها وكفمها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقا	وأفنيناه ضما والتزاما

(١) ديوانه (٢: ٢٢٥).

(٢) الألام: الإثم.

وقوله^(١):

إن كان أفضى الود عندك ينفع
منك الصدود ويان وصلك أجمع
وَجِدِي ويدعوني هواك فأتبع
أني امرؤ كلف بحبك مولع

أضفيك أفضى الود غير مقلل
وأراك أحسن من أراه وإن بدأ
يعتادني طربي إليك فيعتلي
كليفاً بحبك مولعاً ويسرني

وقوله^(٢):

أو فاشركيه في اتصال شهاده
خليت^(٣) عنه ونمت عن إشعاده
باتت تقلقل في صميم فؤاده
وجنبتة^(٤) فرأيت ذل قياده
وذي ولم أمليك عسير واداه
فبليت بعد صدوده ببعاده

رُدِّي على المشتاق بعض رُقاده
أشهرته حتى إذا هجر الكرى
وقسا فؤادك أن يلين للوغة
ولقد عززت فهان طوعاً للهوى
من منصفي من ظالم ملكته
ما كنت أعرف غير سالف وده
وقوله^(٥):

خيال إذا آب الظلام تأوبا
هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
إليه وإلا قلت: أهلاً ومرحبا
يريني أناة الخطو ناعمة الصبا
وقامت مقام البدر لما تعيبا
غليلاً ولافتكت أسيراً معذباً
جها^(٦) ما^(٦) وإن أبرقت خلباً^(٧)
دلالاً فما إن كان إلا تجئبا
وآمن خواناً وأعتب^(٨) مُذنباً

أجدك ما ينفك يسري لزينبا
سرى من أعالي الشام يجلبه الكرى
وما زارني إلا ولهت صباة
وليلتنا بالجزع بات مساعفا
أضرت بضوء البدر، والبدر طالع
ولو كان حقاً ما أتاه لأطفأت
علمتُك إن منيت منيت مؤعداً
وكنت أرى أن الصدود الذي مضى
فوا أسفي حتام أسأل مانعا

(١) ديوانه (٢: ٧٥).

(٢) ديوانه (١: ٥٥).

(٣) خلى الأمر وتخلي عنه: تركه.

(٤) يقال جنب فلان فلاناً، إذا دفعه وأقصاه.

(٥) ديوانه (١: ١٢٩).

(٦) الجهام: السحاب لا ماء فيه.

(٧) البرق الخلب: المطمع المخلف.

(٨) أعتبه: طلب منه العتبي؛ والعتبي: الرضا.

سأنتني فؤادي عنك أو أتبع الهوى إليك إن استعفى^(١) فؤادي أو أبى
ثم انظر: هل تجد معنى مبتدلاً ولفظاً مشتهراً مستعملاً! وهل ترى صنعة
وإبداعاً، أو تدقيقاً أو إغراباً! ثم تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده، وتفقّد ما
يتداخلك من الارتياح، ويستخفك من الطرب إذا سمعته، وتذكر صبوة إن كانت لك
تراها ممثلة لضميرك، ومصورة تلقاء ناظرك.

طبع البحترى في المدح

فإن قلت: هذا نسيب والنفس تهش له، والقلب يعلّق به، والهوى يسرع إليه،
فأنشيد له في المديح قوله^(٢):

بلوناً ضرائب من قد ترى فما إن وجدنا لفتح^(٣) ضريباً
هو المرء أبدت له الحادثا ت عزمًا وشيكا ورأيا صليبا
تنقل في خلقي سؤددٍ سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخاً وكالبحر إن جئته مستثيبا
فتى كرم الله أخلاقه وألبسه الحمد بُرداً قشيبا
وأعطاه من كل خير يُعدُّ دحظاً ومن كل مجد نصيبا
فدينك من أيّ خطب عرا ونائبة أو شككت أن تُثوبا

ثم خرج إلى الاستعطاف وأخذ في العتاب:

وإن كان رأيك قد حال فيّ فالبستني^(٤) بعد بشر قطوبا
وحَيِّبت أسبابي النازعات إليك وما حقها أن تخيبا
يريبني الشئ تاتي به وأكبرُ قدرك أن أسثريبا
وأكره أن أتمادى على سبيل اغترار فألقى شعوبا^(٥)
أكذب ظني بأن قد سخطت وما كنت أعهد ظني كذوبا
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن أذمّ الزمان وأشكو الخطوبا
ولا بد من لومة أنتحي عليك بها مخطئاً أو مُصيبا

(١) في ديوانه: «استعصى».

(٢) ديوانه (١ : ٥١).

(٣) هو الفتح بن خاقان وزير المتوكل، كان أديباً شاعراً فصيحاً. اجتمعت له خزانة كتب حافلة،
وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧.

(٤) في ديوانه: «فلقيتني».

(٥) شعوب: النية.

أَبْصَبِحَ وَرِدِّي فِي رَاحَتَيْهِ
أَبِيعَ الْأَحْبَةَ بَيْعَ السَّوَامِ
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ
وَمَا كَانَ سَخَطُكَ إِلَّا الْفِرَاقُ
وَلَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ ذَنْبًا لَمَا
سَأَصْبِرُ حَتَّى الْأَقْيِ رِضًا
أَرَأَيْتَ رَأْيَكَ حَتَّى يَصْحَ
كَ رَنْقًا وَمَزْعَايَ مَحَلًّا جَدِيبًا
وَأُتْنِي عَلَيْهِمْ حَبِيبًا حَبِيبًا
يُشَقِّقُ فِيهِ الْوِدَاعُ الْجِيُوبَا
أَفَاضَ الْعَيُونَ وَأَشْجَى الْقُلُوبَا
تَخَالَجَنِي الشُّكُّ فِي أَنْ أَتُوبَا
كَ إِمَّا بَعِيدًا وَإِمَّا قَرِيبَا
وَأَنْظُرُ عَطْفَكَ حَتَّى يَتُوبَا

العذب من شعر جرير

وإنما أخلتُك على البُخترِي؛ لأنه أقرَّبَ بِنَا عَهْدًا، ونحن به أشدُّ أنسًا، وكلامه أليقُ بطباعتنا، وأشبهُ بعاداتنا؛ وإنما تألَّفَ النَّفسُ ما جَانَسَهَا، وتَقَبَّلَ الأَقْرَبُ فالأَقْرَبُ إليها. فإن شئتَ أن تعرفَ ذلك في شعرِ غيره كما عرفته في شعره، وأن تعتبرَ القديمَ كاعتبارِ المولَّدِ فأنشد قولَ جرير^(١):

أَلَا أَيُّهَا الْوَادِي الَّذِي ضَمَّ سَيْلُهُ
إِذَا مَا أَرَادَ الْحَيَّ أَنْ يَتَفَرَّقُوا^(٢)
فِيَا لَيْتَ أَنْ الْحَيَّ لَمْ يَتَزَيَّلُوا^(٤)
إِذِ الْحَيُّ فِي دَارِ الْجَمِيعِ كَأَنَّمَا
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَنَّ بِالْعُزْرِ حَاجَةٌ
نَظَرْتُ بِرَهْبًا^(٦) وَالطَّعَائِنُ بِاللَّوَى^(٧)
وَمَا أَبْصَرَ النَّارَ الَّتِي وَضَحَتْ لَنَا
إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى أَيْحَ^(٩) لِي الْهَوَى
حَلِيلِي لَوْلَا أَنْ تَطَّلْنَا بِي الْهَوَى
إَلَيْنَا نَوَى ظَمِيَاءَ حَيِّيَّتِ وَإِدِيَا^(٢)
وَحَنَّتْ جَمَالَ الْحَيِّ حَنَّتْ جَمَالِيَا
وَأَمْسَى^(٥) جَمِيعًا جِيرَةً مُتَدَانِيَا
يَكُونُ عَلَيْنَا نِصْفٌ حَوْلِ لِيَالِيَا
وَأُخْرَى إِذَا أَبْصَرْتُ نَجْدًا بَدَا لِيَا
فَطَارَتْ بِرَهْبًا شُعْبَةً مِنْ قُوَادِيَا
وَرَاءَ جُفَافِ^(٨) الطَّيْرِ إِلَّا تَمَارِيَا
عَلَى مَا تَرَى مِنْ هِجْرَتِي وَاجْتِنَابِيَا
لَقُلْتُ سَمِعْنَا مِنْ عَقِيلَةَ دَاعِيَا

(١) نقائض جرير والفردزق (١: ١٥٩)، ديوانه ص ٦٠١.

(٢) يقول: أنبت هذا الوادي عشبا، فانتجعتهم ظمياء وأهلها، فأقاموا فيه، فالتقينا به.

(٣) في النقائض والديوان: «يتزولوا»، وهي بمعنى يتفرقوا.

(٤) في النقائض والديوان: «يتفرقوا».

(٥) في أ «وأمسوا».

(٦) رهبا: قاع في الصمان في ديار بني تميم: معجم البلدان.

(٧) اللوى: واد من أودية بني سليم.

(٨) جفاف الطير: ماء لبني جعفر بن كلاب.

(٩) في النقائض: أبيع.

قَرِيبٌ وَمَا ذَاتَيْتُ بِالوُدِّ دَانِيَا
وإن كَانَ قَدْ أَغْيَا الطَّبِيبَ المُدَاوِيَا
مَنْعَتِ وَحَلَّاتٍ^(١) القُلُوبَ الصَّوَادِيَا
شَمْسَنَ^(٢) وَوَلَّيْنَ الخُدُودَ العَوَاصِيَا
بِخَيْرٍ وَجَلَى عَمْرَةَ عَن فُوَادِيَا
وَأَنْ أَكْثَمَ الوُجْدَ الَّذِي لَيْسَ خَافِيَا
قَرِيبَا وَتَلَقَى خَيْرَهُ مِنْكَ نَائِيَا
عَلَى وَضِلَ لَيْلَى قُوَّةً مِنْ جِبَالِيَا
يَخُوضُ خُدَارِيَا^(٣) مِنَ اللَّيْلِ دَاجِيَا
مَزَارَا عَلَى ذِي حَاجَةٍ مُتْرَاحِيَا^(٤)

سَرِيعٌ إِذَا لَمْ أَرْضَ دَارِي اخْتِمَالِيَا
مِنَ الأَرْضِ أَنْ تَلَقَى أَخَا لِي قَالِيَا
أَبْعَدَ جَرِيرٍ تُكْرِمُونَ المَوَالِيَا^(٥)
فَمَا لِكَ فِيهِمْ مِنْ مَقَامٍ وَلَا لِيَا
قُدُوتِكَ إِنِّي مُسْتَمِرٌّ لِحَالِيَا
لِيَالِي أَرْجُو أَنْ مَالِكَ مَالِيَا
فإنْ عَرَضَتْ أَيَقْنَتُ أَنْ لَا أَخَا لِيَا^(٦)
قَطَعْتَ القُوى مِنْ مَحْمَلٍ كَانَ بَاقِيَا

قِفَا فَاسْمَعَا صَوْتَ المُنَادِي لَعَلَّهُ
وَلَوْ أَنَّهَا شَاءَتْ شَفَثْنِي بِهَيِّنِ
فإنَّكَ إِن تُعْطِي قَلِيلًا قَطَالِمَا
دُوَّ عِتَاقِ الطَّيْرِ أَسْمَحَنَ بَعْدَمَا
إِذَا اكْتَحَلْتَ عَيْنِي بِعَيْنِكَ مَسْنِي^(٧)
وَيَأْمُرْنِي العُدَالُ أَنْ أَغْلِبَ الهَوَى
فِيَا حَسَرَاتِ القَلْبِ فِي إِثْرٍ مَنْ يَرَى
تُعَيِّرُنِي الإِخْلَافَ لَيْلَى وَأَفْضَلَتْ
تَخْطَى إِلَيْنَا مِنْ بَعِيدِ خِيَالِهَا
فحُيِّيتَ مِنْ سَارٍ تَكَلَّفَ مَوْهِنَا

ثم خرج فقال:

وَإِنِّي لَعَفُ القَفْرِ مُشْتَرِكُ العِنَى
وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِيكَ وَالخَرْقُ^(٨) بَيْنَنَا
وَقَائِلَةٌ، وَالدَّمْعُ يَغْسِلُ كُحْلَهَا:
فَرُدِّي جَمَالَ النِّبِينِ^(٩) ثُمَّ تَحْمَلِي
تَعَرَّضْتُ فَاسْتَمَرَّرْتُ مِنْ دُونِ حَاجَتِي
وَإِنِّي لَمَغْرُورٌ أَعْلَلُ بِالمُنَى
فَأَنْتَ أَجْبِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً
بِأَيِّ نَجَادٍ^(١٠) تَحْوِلُ السَّيْفَ بَعْدَمَا

(١) حلّات: منعت؛ والصوادي: العطاش.

(٢) شمس: امتنع.

(٣) أي الاكتحال.

(٤) الخداري: الأسود.

(٥) الموهن: الجزء من الليل، والمتراحي: البعيد.

(٦) الخرق: القفر.

(٧) الموالي: بنو العم.

(٨) في النقائض: الحي.

(٩) رواية النقائض:

فلئن عرضت فلاني لا أبا ليا

فأنت أبي ما لم تكن لي حاجة

(١٠) نجاد السيف: حمائله.

بأي سِنَانٍ تَطْعَنُ الْقَرْمَ^(١) بَعْدَ مَا
 أَلَمَ أَكْ نَاراً يَضْطَلِّيهَا عَدُوَّكُمْ
 وَبَسِطَ خَيْرٍ فِيكُمْ بِيَمِينِهِ
 إِذَا سَرُّكُمْ أَنْ تَمْسُحُوا وَجْهَ سَابِقِ
 أَنَا ابْنُ صَرِيحِي خَنْدِفٍ غَيْرِ دَعْوَةٍ
 وَلَيْسَ لِسِنْفِي فِي الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ
 أَلَا لَا تَخَافَا نُبُوَّةَ فِي مِلْمَةٍ
 نَزَعْتَ سِنَاناً مِنْ قَنَاتِكَ مَا ضِيَا
 وَحِرْزاً لِمَا أَلْجَأْتُمْ مِنْ وَرَائِيَا
 وَقَابِضَ شَرِّ عَنَّاكُمْ بِشِمَالِيَا
 جَوَادٍ فَمُدُّوا وَابْسُطُوا مِنْ عِنَائِيَا
 يَكُونُ مَكَانُ السِّنْفِ مِنْهَا مَكَانِيَا^(٢)
 وَلِلْسِنْفِ أَشْوَى^(٣) وَقَعَةٌ مِنْ لِسَانِيَا
 وَخَافَا الْمَتَايَا أَنْ تَفُوتَكُمَا بِيَا

وإنما أثبت لك القصيدة بكمالها، ونسختها على هيئتها، لترى تناسب أبياتها وازدواجها، واستواء أطرافها واشتباهاها، وملاءمة بعضها لبعض، مع كثرة التصرف على اختلاف المعاني والأغراض.

الحشو في الشعر

وقد علمت أن الشعراء قد تَدَاوَلُوا ذكر عيون الجآذر وخواطر الغزلان؛ حتى إنك لا تكاد تجد قصيدة ذات نسيب تخلو منه إلا في النادر الفذ؛ ومتى جمعت ذلك ثم قرنت إليه قول امرئ القيس^(٤):

تَضُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي
 بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَخْشٍ وَجِرَّةٍ مُطْفِلٍ^(٥)
 أَوْ قَابِلْتَهُ بِقَوْلِ عَدِيِّ بْنِ الرَّقَاعِ:
 وَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا
 عَيْنِيهِ أَخْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمٍ^(٦)

رأيت إسراع القلب إلى هذين البيتين، وتبينت قريتهما منه؛ والمعنى واحد، وكلاهما خالٍ من الصنعة، بعيدٌ عن البديع؛ إلا ما حَسُنَ به من الاستعارة اللطيفة، التي كسته هذه البهجة. هذا وقد تخلل كل واحد منهما من حشو الكلام ما لو حُذِفَ لاستغني عنه وما لا فائدة في ذكره؛ لأن امرأ القيس قال: «من وَخْشٍ وَجِرَّةٍ»، وعدياً قال: «من جآذرِ جاسمٍ»، ولم يُذكَرَا هذين الموضعين إلا استعانة بهما في إتمام

(١) القرم: السيد. ورواية النفاض: «القوم».

(٢) الصريح: الخالص؛ ويريد بصريح خندف: مدركة وطابخة ابني إلياس بن معد. والدعوة: أن يدعى الرجل إلى غير أبيه.

(٣) يقال رمى فأشوى؛ إذا لم يصب.

(٤) الديوان ص ٢٨.

(٥) وجرة: موضع بين مكة والبصرة. والمطفل: ذات الطفل من الإنسان.

(٦) اللسان (١٤: ٣٦٦). وجاسم: موضع بالشام. والجؤذر: ولد البقرة.

النظم، وإقامة الوزن، ولا تلتفتن إلى ما يقوله المعنويون في وَجْرة وجاسم، وإنما يَطْلُبُ به بعضهم الإغرابَ على بعض؛ وقد رأيتُ طبَّاءَ جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الأطباء. وسألت من لا أُحْصِي من الأعراب عن وحش وَجْرة فلم يَرَوْا لها فضلاً على وحش ضَرِيَّة^(١) وغزلان بَسِيْطَة^(٢)، وقد يختلف خَلْقُ الطُّبَّاءِ وألوانها باختلاف المَشْأِ والمرْتع؛ وأما العيون فقلُّ أن تختلف لذلك؛ وأمَّا ما تَمَّ به عدي الوصف، وأضافه إلى المعنى المبتذل بقوله على إثر هذا البيت^(٣):

وَسَنَانُ أَيْقَظُهُ^(٤) الثُّعَاسُ فَرَّتْكَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ

فقد زاد به على كلِّ مَنْ تقدم، وسبق بفضله جميع من تأخر، ولو قلتُ: اقتطع هذا المعنى فصار له، وحَظَرَ على الشعراء ادِّعاء الشُّرك فيه لم أرني بَعُدْتُ عن الحق، ولا جَانَبْتُ الصُّدُق. وقد تغزل أبو تمام فقال^(٥):

دَعْنِي وَشَرِبَ الْهُوَى يَا شَارِبَ الْكَاسِ فَإِنِّي لِلَّذِي حَسِيْتَهُ حَاسِي
لَا يُوحِشُكَ مَا اسْتَعْجَمْتُ مِنْ سَقَمِي فَإِنَّ مَنْزَلَهُ مِنْ^(٦) أَحْسَنِ النَّاسِ
مَنْ قَطَعَ الْفَاطِطِ^(٧) تَوْصِيْلُ مَهْلِكَتِي وَوَضَلَ الْحَاظِهُ تَقْطِيعُ أَنْفَاسِي
مَتَى أَعِيشَ بِتَأْمِيْلِ الرَّجَاءِ إِذَا مَا كَانَ قَطْعُ رَجَائِي فِي يَدِي يَاسِي^(٨)

فلم يَخُلُ بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة؛ طابق وجانس، واستعار فأحسن، وهي معدودة في المختار من عَزَلِه. وحق لها؛ فقد جمعت على قِصْرِهَا فنونا من الحُسن، وأصنافاً من البديع، ثم فيها من الإحكام والمتانة والقوة ما تراه؛ ولكنتي ما أظنك تجد له من سَوْرَةِ الطُّرْبِ، وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب^(٩):

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعَيْسِ تَهْوِي بِنَا بَيْنَ الْمُنَيْفَةِ فَالضُّمَارِ^(١٠)
تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ^(١١)

(١) ضرية: موضع بنجد.

(٢) اللسان (١١: ٤١٨).

(٣) رواية اللسان «أقصده»، ورنق النوم في عينه. خالطها.

(٤) ديوانه ص ٤٤٥.

(٥) في الأصلين في. وهذه رواية الديوان.

(٦) في الأصل: أوصاله.

(٧) اليأس: قطع الأمل.

(٨) ديوان الحماسة (٣: ٢١٤)، واللسان (٦: ٢٣٥)، ونسبها للصفحة بن عبد الله القشيري.

(٩) المنيفة: ماء لبني تميم، والضمار: موضع.

(١٠) يقال: تمتع بكذا ومن كذا، والشميم: مصدر شم، والعرار: وردة ناعمة صفراء، طيبة الرائحة.

أَلَا يَا حَبِيبًا نَفَحَاتُ نَجْدٍ وَرِيَّارَوْضِهِ غِبِّ الْقَطَارِ^(١)
وعيشك إذ يحلُّ القوم نَجْدًا^(٢) وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ
شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا بِأَنْصَافٍ لَهْنٌ وَلَا سِرَارِ^(٣)
فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ وَأَقْصَرُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ
فهو كما تراه بعيد عن الصنعة، فارغ الألفاظ، سهل المآخذ، قريب التناول.

وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتُسَلِّمُ السُّبْقُ فِيهِ لِمَنْ وَصَفَ فَأَصَابَ، وَشَبَّهَ فِقَارِبَ، وَبَدَّةَ فَأَغْزَرَ، وَلِمَنْ كَثُرَتْ سَوَائِرُ أَمْثَالِهِ وَشَوَارِدُ أَبِيائِهِ؛ وَلَمْ تَكُنْ تَعْبَأُ بِالتَّجْنِيسِ وَالمُطَابَقَةِ، وَلَا تَحْفِلُ بِالإِبْدَاعِ^(٤) وَالاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض.

(١) النفع: تضيوع الرياح بالطيب، والرياء: الرائحة، وغب كل شيء: عاقبته، والقطار: جمع قطر؛ وهو المطر. ورواية الحماسة واللسان:

ورياروضه بعد القطار

(٢) رواية الحماسة:

وأهلك إذ يحل الحسي نجدا

(٣) سرار الشهر: آخره.

(٤) يقال: أبدع الرجل؛ إذا أتى بالبديع.

البدیع

وقد كان يقع ذلك^(١) في خلال قصائدها، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد؛ فلما أفضى الشعر إلى المحدثين، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن، وتميَّزها عن أخواتها في الرشاقة واللفظ، تكلفوا الاحتذاء عليها فسمَّوه البديع؛ فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصد ومفترط.

مَثَل من الاستعارة الحسنة

فإذا جاءتك الاستعارة كقول زهير^(٢):

وَعُرِّي أفراس الصُّبَا ورواحله^(٣)

وقول لبيد^(٤):

إذ أَصْبَحَتْ بيد الشَّمَالِ زمامها^(٥)

وقول ابن الطُّرَيْبِ^(٦):

أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا وسالت بأعناقِ المطيِّ الأباطِحِ^(٧)

(١) ذلك؛ أي استعمال البديع والاستعارة.

(٢) ديوانه ص ٢٤.

(٣) صدره:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

قال الأعلام: «هذا مثل ضربه؛ أي ترك الصبا وركوب الباطل. وتقدير لفظه: عريت أفراس ورواحل كنت أركبها في الصبا وطلب اللهو».

(٤) شرح المعلفات للتبريزي ص ١٥٨، نهاية الأرب (٧: ٤٩).

(٥) صدره:

وغداة ریح قد وزعت وقرة

والضمير في أصبحت يعود على الغداة؛ أي أصبحت الغداة الغالب عليها الشمال؛ وهي أبرد الرياح.

(٦) أسرار البلاغة ص ١٦. وقيله:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو مسح

وشدت على دهم المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

(٧) الأباطح: جمع أبطح، وهو المسيل الواسع فيه دفاق الحمى.

وقول الحارث بن جِلْزَة^(١):

حتى إذا التَّفَع الطُّبَاءُ بِأَطْرَافِ الظُّلَالِ وَقِلْنِ فِي الكُنُسِ^(٢)
وقول أبي نُؤاس^(٣):

أعطتك ربحانها العُقَار

وقوله:

بصحن خَدُّ لَمْ يَغْضُ مَآؤُهُ وَلَمْ تَخْضُهُ أَعْيُنُ النَّاسِ
وقوله^(٤):

جَرَيْتُ مَعَ الصُّبَا طَلُقَ الجُمُوحُ وَهَانَ عَلَيَّ مَأْتُورُ القَبِيحِ
وقوله:

مباحة ساحة القلوبِ له يرتع فيها أطايب الثمر
وقوله:

وإِذَا بَدَأَ افْتَادَتْ مَحَاسِنُهُ قَسْرًا إِلَيْهِ أَعْنَةُ الحَدَقِ
وقوله يصف الكأس^(٥):

بنيينا على كِسْرَى سماءِ مُدَامَةٍ مُكَلَّلَةٌ حَافَاتُهَا بِنَجُومٍ
وقول مسلم:

ولما تلاقينا قضى الليلُ نَحْبَهُ

وقوله^(٦):

ظلمتُك إن لم أَجْزِلِ الشُّكْرَ إِنَّمَا جَعَلْتَ إِلَى شُكْرِي نَوَالِكَ سُلْمًا
فانظر كم بين استعارته السُّلْمَ، واستعارة أبي تمام له في قوله^(٧):

مَاضِرٌ أَرْوَعَ يَزْتَقِي فِي هِمَّةٍ رَوْعَاءُ^(٨) أَنْ لَا يَرْتَقِي فِي سُلْمٍ

(١) شعراء النصارية ص ٤٢٠.

(٢) قلن: نمن وقت القائلة؛ وهي الظهيرة. والكنس: جمع كناس؛ وهو مكان الأطباء في الشجر.

(٣) ديوانه ص ٢٧٤، عجزه:

وَحَانَ مِنْ لَيْلِكَ السَّفَارِ

(٤) ديوانه ص ٢٥٧.

(٥) ديوانه ص ٣٢٧.

(٦) مختارات البارودي (١: ١١٥).

(٧) ديوانه ص ٣١٣. ومختارات البارودي (١: ٢١٣).

(٨) في الديوان ومختارات البارودي: «علياء».

- وأوَّل من علمناه افتتح هذه اللفظة الحُصين بن الحُمَام المُرِّي في قوله^(١) :
 فلستُ بمبتاع الحياة بذلة ولا مُرْتَقٍ مِنْ خَشِيَةِ الموت سُلْمَا
 وهذا قريب من الحقيقة، وإن كان فيه شُعْبَةٌ من ضرب المثل .
 وقول أبي تمام^(٢) :
 أَدَّتْ نِقَاباً عَلَى الخَدَّيْنِ وَأَنْتَقَبْتُ^(٣) لِلنَّاطِرِينَ بِقَدِّ^(٤) لَيْسَ يَنْتَقِبُ
 وقوله^(٥) :
 وقد عَلَّمَ الأَفْشِينَ وهو الذي به يَصَانُ رِداءَ الملك عن كل جاذب^(٦)
 وقوله^(٧) :
 رَقَّتْ حَوَائِشي الدهر فهي تَمْرَمُرُ وَعَدَا الثَّرَى في حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ^(٨)
 على أن لفظة «يتكسر» حَضْرِيَّةٌ مولدة .
 وقوله^(٩) :
 وكم سرق^(١٠) الدُّجَى من حُسْنِ صبرٍ وَغَطَى من جِلَادٍ فتى جليد
 وقوله^(١١) :
 وَيَضْحَكُ الدهر منهم عن عَطَارِقَةٍ^(١٢) كَأَنَّ أَيَّامَهُم من حُسْنِهَا جُمُعُ
 وقول البحثري^(١٣) :
 يُذَكِّرُنَا رِيًّا الأَجْبَةَ كُلَّمَا تَنَفَّسَ في جَنحٍ من الليلِ بارِدِ
 وقوله يصف الخيال^(١٤) :
 إِذَا نَزَعَتْهُ من يَدِيَّ انتباهَةً عَدَدت حبيباً راح مني أو عَدَا

- (١) ديوان الحماسة (١ : ٣٦٤) .
 (٢) ديوانه ص ٤٧ .
 (٣) في الديوان : «انتسبت» .
 (٤) في أ «بقد»، وصوابه من ب .
 (٥) ديوانه ص ٤٢ .
 (٦) الأفشين : كان عبداً للمعتصم فاصطنعه ورفع شأنه، ثم قتله . والبيت من قصيدة يمدح فيها أبا دلف العجلي ؛ أحد قواد المأمون ثم المعتصم، مطلعها :
 على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب
 وهي من عيون القصائد .
 (٧) ديوانه ص ١٥٦ .
 (٨) تمرمر : تتمايل . والثرى : التراب . والحلي : الزينة . وتكسر : تشنى .
 (٩) ديوانه ص ١٠٦ .
 (١٠) في الأصلين «شرق»، وما أثبتناه عن الديوان .
 (١١) ديوانه ص ٣٧٢ .
 (١٢) العطارقة : السادة .
 (١٣) ديوانه (١ : ١٣٦) .
 (١٤) ديوانه (١ : ١٧٤) .

وقوله (١):

وَإِذَا دَجَّتْ أَقْلَامُهُ ثُمَّ انْتَحَتْ
بَرَقت مصابيح الدجى في كُتبه
وقوله (٢):

وَكُنْتُ إِذَا اسْتَبْطَأْتُ وَدَكَ زُرْتُهُ
بتفويف شِعْرِ كَالرِّدَاءِ الْمُحَبَّرِ (٣)
وقول ابن المعتز:

أَقُولُ وَدَمَعَ الْعَيْنُ تَسْرِقُهُ يَدِي
حذار لدمع الشامت المتودد
وقوله (٤):

سَارُوا وَقَدْ خَضَعَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ لَهُمْ
حتى توقد في ذيل الدجى الشفق
وقوله:

لَوْ تَرَانَا إِذَا انْتَبَهْنَا قَعُودًا
نستشف القرى عن الأحلام
وقوله (٥):

مَا زَالَ يَلْطِمُ خَدَّ الْأَرْضِ وَابِلْهَا
حتى وقث خدها العُذْرَانُ وَالْخَضْرُ
وشتان ما بين هذا اللطم ولطم أبي تمام في قوله (٦):

مَلْطُومَةٌ (٧) بِالْوَرْدِ أَطْلَقَ دُونَهَا
في الخلق فهو مع المئون مُحَكَّم
وإنما نازع أبا نُوَاسٍ قَوْلَهُ (٨):

يَبْكِي فَيَذُرِي الدَّرَّ مَنْ نَزَّجَسَ
وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بَعُثَابِ

فسبق أبو نواس بفضّل التقدّم والإحسان، وحصل هو على نقص السرق والتقصير؛ لكنه أحسن في بقية البيت فجبر بعض ذلك النقص.

وقول كُشَّاجِمٍ يَصِفُ السَّحَابَ (٩):

مُقْبِلَةٌ وَالْخَضْبُ فِي إِقْبَالِهَا
والرعدُ يحدو الوُزُقَ (١٠) من جمالها

(١) ديوانه (١ : ٦٨).

(٢) ديوانه (١ : ١٥٠).

(٣) البرد المفوف: الرقيق. والمحبر: الموشى.

(٤) ديوانه (١ : ٤١)، وقد رواه «في ثوب الدجى».

(٥) ديوانه (٢ : ١٢١).

(٦) ديوانه ص ٢٨٤.

(٧) رواية الديوان: «مظلومة للورد أطلق طرفها».

(٨) نهاية الأرب (٧ : ٤٦). وفي هامش ب قبله:

يَا قَمْرًا أَبْصَرْتَ فِي مَاتِمٍ يَنْدُبُ شَسْجُواً بَيْسِنَ أَتْرَابِ

(٩) ديوانه ص ١٥٩.

(١٠) في الأصلين: والرعد يحدو البرق من أحجالها

وهذه رواية الديوان.

بخطبة^(١) أبدع في ارتجالها
تجلّها الریح عن استعجالها
فحين ضاق الجوّ عن مجالها
جثوبها تشكو إلى شمّالها
كأنما تسألها^(٥) عن حالها
وكاد أن ينهض لإستقبالها
حتى لقال^(٧) الثرب من تهطالها
ثم أنثنى يُثنى على فعّالها
وقول السري الموصلي^(٩):

أقول لحنان العشي المغرد^(١٠)
تبسم عن ري البلاد صبيبه^(١١)
ويا دبرها الشرقي لا زال رائح
عليلة أنفاس الرياح كأنما
يشق جيوب الوزد في جنباته

فقد جاءك الحسن والإحسان، وقد أصبت ما أردت من إحكام الصنعة وعضوبة اللفظ.

(١) في الأصلين:

مخطبة أبدع في أرجالها

وهذه رواية الديوان.

(٢) في الديوان: «كما».

(٣) رواية الديوان:

فحين ضاق الجوّ عن مجالها
كأنما يسألها عن حالها

والزهر قد أصغى إلى مقالها
وراحت الرياح من كلالها

(٤) يقال: جاء على أدّالاه: أي وجهه، ورواية الديوان: «على دلّالها».

(٥) في الديوان: «نسألها».

(٦) في الديوان: «فسمحت».

(٧) رواية الديوان:

حتى أتاك الشرب من هطالها

(٨) في الأصلين: «لي».

(٩) ديوانه ص ٩٧، وقد قال هذه القصيدة يتشوق إلى الموصل ويذكر خرابها.

(١٠) في الأصلين: «مغرد». وهذه رواية الديوان.

(١١) في الديوان: حبيبه. (١٢) في الديوان: «يغتدى».

مُثَلٌّ مِنَ الاسْتِعَارَةِ السَّيِّئَةِ

فإذا سمعت بقول أبي تمام:

باشرت أسباب الغنى بمدائح
ضربت بأبواب الملوك طُبُولا
وبقوله^(١):

لها بين أبواب الملوك مَزَامِيرُ
من الذُكْرُ لم تنفخ ولا هي تزمُرُ
وبقوله^(٢):

إذا ما الدَّهْرُ جَرَّ^(٣) جَرَّتْ أيادي
يديه^(٤) فغَشَّتِ الدُّنْيَا ظِلَالَا
وبقوله^(٥):

يا دهر قَوْمٍ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ
أَضَجَجْتَ هذا الأَنامَ من حَرَقِكَ^(٦)
وبقوله^(٧):

إلى ملك في أَيْكَةِ المجد لم يَزَلْ
على كَبِدِ المَعروف من نيله بَزْدِ^(٨)
وبقوله^(٩):

كَأَنَّنِي حِينَ جَرَّدْتُ الرَّجَاءَ لَهُ
عَضِبَ^(١٠) صَبِيَّتَ بِهِ ماءً على الزَّمَنِ^(١١)
وقول أبي نُؤاس:

يا عمرو أضحط مبيضة كَبِدِي
فاصبغ بياضاً بعصفر العنْبِ

فاسدد مسامعك، واستغش^(١٢) ثيابك، وإياك والإصغاء إليه، واحذر الالتفات نحوه؛ فإنه مما يُصدئ القلب ويُغميه، ويُطمس البصيرة، ويكدّ القرينة.

(١) ديوانه ص ١٦٠. (٢) يمدح أبا سعيد: ديوانه ص ٢٦٦.

(٣) في الديوان: «جار». (٤) في الديوان: «يديك».

(٥) ديوانه ص ٢١٠.

(٦) الأخدعان: عرقان في العنق، والخرق: المحمق.

(٧) ديوانه ص ١٠٨.

(٨) الأيكة: الشجر الملتف. ورواية الديوان:

لدى ملك من أَيْكَةِ الجود لم يزل
(٩) ديوانه ص ٣٣٤.

(١٠) في الديوان: «غضا».

(١١) كذا رواه، وفي مختارات البارودي (١: ٢١٦).

كَأَنَّنِي يوم حررت الرجاء له عضبا أخذت به سيفاً على الزمن

(١٢) يقال: استغشى ثيابه، وتغشى بها: تغطى بها حتى لا يرى ولا يسمع؛ وفي التنزيل:

﴿واستغشوا ثيابهم﴾.

الفرق بين التشبيه والاستعارة

وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارةً وهو تشبيه أو مثل؛ فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعاً من الاستعارة عدّ فيها قول أبي نواس:

والحُبُّ ظَهْرٌ أَنْتَ رَاكِبُهُ فإذا صرَفْتَ عِناهُ انصَرَفَا
ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر، أو الحب كظهر تُديره كيف شئت إذا ملكت عِناهُ؛ فهو إمّا ضرب مَثَلٍ أو تشبيه شيء بشيء؛ وإنما الاستعارة ما اكتُفِيَ فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها. وملاكها تقريب الشَّبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى؛ حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر.

التجنيس المطلق

فأما التجنيس؛ فقد يكون منه المطلق، وهو أشهر أوصافه، كقول النابغة^(١):
وَأَقْطَعُ الحَرْقُ الحَرْقَاءَ قَدْ جَعَلْتُ بعد الكلالِ تشكُّي الأَيْنِ والسَّامَا^(٢)
وقول الشَّنْفَرَى^(٣):
فَبِئْسَ مَا كَانَ البَيْتِ حُجْرًا فَوْقَنَا برِيحَانةٍ رِيحَتْ^(٤) عِشَاءً وَطُلَّتْ
وقول رؤبة:

أَحْضَرْتُ أَهْلَ حَضْرَمَوْتِ مَوْتَا

فجانس في موضعين في بيت رجز.

وقول أبي تمام^(٥):

تَطَلُّ الطَّلُولُ الدَّمْعَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ وَتَمَثَّلُ بِالصَّبْرِ الدِّيَارُ المَوَائِلُ^(٦)

(١) ديوانه ص ٦٧.

(٢) الحرق: الواسع من الأرض الذي ينحرق فيه الريح. والخرقاء: الناقة التي بها هوج من نشاطها. والأين: الإعياء. والسأم: الفتور والملل؛ يشير إلى بعد السفر وطوله، وأنه استعمل هذه الناقة نشيطة في أول أمرها حتى أعييت من طول السفر؛ فلو كانت مما يشتكي لشكت طوله. شرح ديوان النابغة للبطلوسي ص ٦٧.

(٣) مهذب الأغاني (١: ٩٦).

(٤) ريحت: أصابتها ريح، فجاءت بنسيمها.

(٥) ديوانه ص ٢٥٥.

(٦) تطل: تسكب. الطلول: الآثار. وتمثل: تقتله بتعذيب. الموائل: الدوارس.

فجانس في المصراعين .

وقول البحتري^(١) :

صَدَقَ العُرَابُ لَقَدْ رَأَيْتَ حَمُولَهُمْ^(٢) بِالْأَمْسِ تَغْرِبُ عَنِ جَوَانِبِ غَرْبِ
فجانس بثلاثة ألفاظ .

التجنيس المستوفى

وقد يكون منه التجنيس المستوفى، كقول أبي تمام^(٣) :

ما مات من كرم الزمان فإنه^(٤) يحيى لدى يحيى بن عبد الله^(٥)

فجانس بيحيا ويحيى، وحروف كل واحد منهما مستوفاة في الآخر؛ وإنما عُدَّ في هذا الباب لاختلاف المعنيين؛ لأن أحدهما فعلٌ والآخر اسم؛ ولو اتفق المعنيان لم يُعَدَّ تجنيساً، وإنما كان لفظة مكررة، كقول امرئ القيس^(٦) :

فلما دنوت تَسَدَيْتُهَا^(٧) فثوباً نسيْتُ وثوباً أُجِرَ

فقد تكرر في البيت ذكر الثوب، كما تكرر ذكر يحيى في بيت أبي تمام، إلا أن هذين اتَّفَقَ معناهما، واختلف ذلك المعنيان؛ فَعُدَّ الأول من البديع .

ومما أضيفه إلى هذا الباب وخالفني فيه بعضُ أهل الأدب قول الأعشى^(٨) :

إن تَسُدَّ الحُوصَ^(٩) فلم تَعُدَّهُم وعامرٌ سادَ بنسي عامرٍ

فأقول: إنه قد جانس بعامر وعامر؛ لأن الأول اسم رجل^(١٠)، والآخر اسم قبيلة . وأراه يخالف قول الآخر^(١١) :

قتلنا به خيرَ الضَّبَيْعَاتِ كُلِّهَا ضَبَيْعَةَ قَيْسٍ لا ضَبَيْعَةَ أَضَجَمَا

لأن كليهما قبيلتان، فكأنما جمع بين رجلين مُتَّفَقِي الاسم .

(١) ديوانه ص ١٩ . (٢) رواية الديوان والعمدة : «شموسهم» .

(٣) ديوانه ص ٣٤١ ، نهاية الأرب (٧ : ٩٠) ، الطراز (٢ : ٣٥٧) .

(٤) رواية الديوان :

من مات من حدث الزمان فإنه

(٥) من قصيدة يمدح بها يحيى بن عبد الله .

(٦) ديوانه ص ٩ .

(٧) تسديتها: تناولتها وقصدت إليها .

(٨) قصص العرب (٣ : ١٠٥) .

(٩) الحوص: هم قوم الأحوص بن جعفر بن كلاب، وعمرو بن الأحوص .

(١٠) هو عامر بن الطفيل، أحد فتاك العرب وشعرائهم .

(١١) العمدة (١ : ٢٢٧) .

التجنيس الناقص

ومنه التجنيس الناقص، كقول الأَخْس بن شهاب:
 وحامي لواءٍ قد قَتَلْنَا وحاملٍ لواءٍ منعنا والسيوفُ شوارعُ
 فجانس «بحامي وحامل»، والحروف الأصلية في كل واحد منهما تنقص عن الآخر.

ومثله قول أبي تمام^(١):

يَمْدُون من أيدي عواصمٍ عواصمٍ تطول^(٢) بأسيافٍ قواصٍ قواصٍ
 فأما قوله:

خَلَفْتُ بالأفق الغربي لي سَكَنًا قد كان عيشي به حُلُوأً بحلوان

فهو من الأول وليس بناقص؛ لأن الألف والنون في حلوان زائدتان.

ومنه التجنيس المضاف، كقول البحري^(٣):

أيا قمر التمام أعنت ظُلماً عليّ تطاول الليل التمام^(٤)

ومعنى التمام واحد في الأمرين، ولو انفرد لم يُعَدَّ تجنيساً؛ ولكنَّ أَحَدَهُمَا صار موصولاً بالقمر، والآخر بالليل؛ فكانا كالمختلفين. وقد يكون من هذا الجنس ما تجانس به المفرد بالمضاف، وقد تكون الإضافة اسماً ظاهراً ومكنياً، وقد تكون نسباً. ومن أملح ما سمعت فيه قول أبي الفتح بن العميد^(٥):

فإن كان مسخوطاً فقل شعر كاتب وإن كان مرضياً فقل شعر كاتب^(٦)

المطابقة

وأما المطابقة فلها شَعَبٌ خفية، وفيها مكانن تَغْمُض، وربما التبست بها أشياء

(١) ديوانه ص ٤٢، أسرار البلاغة ص ١٣، نهاية الأرب (٧: ٧)، الطراز (٢: ٣٦٢).

(٢) في الديوان: «تصول».

(٣) ديوانه ص ٢٤٦.

(٤) أتم القمر: اكتمل، وهو بدر تمام (بفتح التاء وكسرهما، ويرى ابن دريد أنه بكسرهما)، وليل التمام: أطول ليالي الشتاء.

(٥) العمدة (٢: ٤).

(٦) قال ابن رشيق: «وهو داخل عندي في باب التردد؛ إذ كان قوله عند السخط «شعر كاتب» إنما معناه التقصير به، وبسط العذر له؛ إذ ليس الشعر من صناعته، كما حكى ابن النحاس أنهم يقولون نحو كتابي إذا لم يكن مجوداً. وقوله عند الرضا: «شعر كاتب» إنما معناه التعظيم له وبلوغ الغاية في الظرف والملاحة لمعرفة الكتاب باختيار الألفاظ وطرق البلاغات؛ فقد ضاد وطابق في المعنى وإن كان اللفظ تجنيساً مردداً».

لا تتميزَّ إلا للنظرِ الثاقب، والذهن اللطيف؛ ولاستقصائها موضعٌ هو أملك به. ولم نفتح هذا الكلام وقصدنا ما جرى بنا القول إليه؛ لكنَّ الحديث شجون، وربما احتاج الشيء إلى غيره فذكر لأجله، وربما اتصل بما هو أجنبي منه فاستصحبه.

ومن أشهر أقسام المطابقة ما جرى مجرى قول دِغِيل^(١):

لا تعجبي يا سَلْمُ من رجلٍ ضحك المشيب برأسه فبكى
وقول مسلم بن الوليد:

مُسْتَعْبِر يَبْكي على دِمْنَة ورأسه يضحك فيه المشيب
وقول أبي تمام^(٢):

وتنظري حَبَبَ الرِّكاب يَنْصُها^(٣) مُحْيِي القَرِيض إلى مُمِيت المال
وقوله:

أرضى الثرى وأسخط الغبارا

وقوله^(٤):

هذا الذي عرفت يداؤه ساحتي من بعد ما جهل البخيل مكاني
فكلُّ هذا بابٌ واحد، وقد يجيء منه جنسٌ آخر تكون المطابقة فيه بالنفي، كقول البحري^(٥):

يُقَيِّض لي من حيث لا أعلم الهوى ويسري إليَّ الشوق من حيث أعلم
لما كان قوله: «لا أعلم» كقوله: أجهل، وكان قوله: أجهل مطابقة كان الآخر بمثابة. ومن أغرب ألفاظه وألطف ما وُجد منه قول أبي تمام^(٦):

مَهَا الوحش إلا أن هاتا أو أيسرَ قَنَا الخطُ إلا أن تَلِك دَوَابِلُ

فطابق «بهاتا وتلك»، وأحدهما للحاضر، والآخر للغائب، فكانا نقيضين في المعنى. وبمنزلة الضدين.

وقد يخلط من يقضّر علمه ويسوء تمييزه بالمطابق ما ليس منه؛ كقول كعب بن سعد^(٧):
لقد كان: أَمَا جِلْمُهُ فمروِّحٌ علينا وأَمَا جَهْلُهُ فعزيب^(٨)

(١) نهاية الأرب (٧: ١٠٠). (٢) مختارات البارودي (١: ١٩٧).

(٣) النص: السير السريع. (٤) ديوانه ص ٢٩٩.

(٥) ديوانه (٢: ٢٢٩).

(٦) ديوانه ص ٢٢٧، نهاية الأرب (٧: ٩٩)، وقد نسيه هناك إلى ابن المعتز.

(٧) جمهرة أشعار العرب ص ٢٧٥، والأمالى ٢: ١٤٨؛ من قصيدته التي مطلعها:

تقول سليمان ما لجسمك شاحبا كأنك يحميك الطعام طيب

(٨) مروح علينا: قريب منا. والعزيب: البعيد، مثل العازب.

لما رأى الحلم والجهل، ومرّوحاً وعزيباً جعلهما في هذه الجملة. ولو ألحقنا ذلك بها لوجب أن نلحق أكثر أصناف التقسيم، ولأنّسع الخرق فيه حتى يستغرق أكثر الشعر. ولنا في استيفاء هذا الكلام وتحديد هذه الأضرب قول سئورد له كتاباً يُحتمل استقصاؤه فيه.

التصنيف

ومن أصناف البدیع التصنيف؛ كقول الشاعر^(١):

ولم يكن المغترُّ بالله إذ سرى ليُعجز، والمعترُّ بالله طالبه
وقوله^(٢):

فكأنَّ الشليل والنثرة الحَضْءَ بَداء منه على سليل غريف^(٣)
وقوله^(٤):

ما بعيني هذا الغزال الغرير من فُتونٍ مُستَجَلِبٍ من فُتورٍ
وقول إسماعيل بن عبّاد:

عَمَائِمٌ هُنَّ فَوْقَ أَرْؤُسِنَا عَمَائِمٌ لَمْ يُدْلَنَ بِالْخَرْقِ^(٥)

وهذا يدخل في بعض الأقسام التي ذكرناها في التجنيس؛ لكن ما أمكن فيه التصنيف فله بابٌ على جِاله، وجانبٌ يتميّز به عن غيره.

التقسيم

ومنه التقسيم، وقد يكون موصولاً، كقول زهير^(٦):

يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا اطْعَنُوا ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا اعْتَنَقَا^(٧)

فقسّم البيت على أحوال الحرب ومراتب اللقاء، ثم ألحق بكل قسم ما يليه في المعنى الذي قصده من تفضيل الممدوح، فصار موصولاً به، مقروناً إليه. ونحوه قول عترة^(٨):

إِنْ يَلْحَقُوا أَكْرَرُ وَإِنْ يَسْتَلْجِمُوا^(٩) أَشَدُّ وَإِنْ نَزَلُوا بَضِيقَ أَنْزَلِ

(١) هو البحرى، ديوانه (١: ١٨).

(٢) ديوانه (١: ١٠٤).

(٣) الشليل: غلالة تلبس تحت الدرع، والنثرة: الدرع الواسعة، والحصداء: المحكمة، والغريف: القبياء. وليل الغريف: الأسد. والبيت من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن الحسن بن سهل.

(٤) ديوانه (٢: ١٤).

(٥) أي لم يجعل ذيلهن من الخرق.

(٦) ديوانه ص ٤١.

(٧) يقول: إذا ارتسى الناس في الحرب بالنبل دخل هو تحت الرمي فجعل يطاعنهم، فإذا تطاعنوا ضارب بالسيف، فإذا تضاربوا بالسيف اعتنق كل قرن قرنه والتزمه.

(٨) ديوانه ص ١٠٠.

(٩) يقال: استلحمتنا رجل من العدو أي تبعنا.

فهذا كالأول في الصنعة، وإن كان إنما أزوج كل قسم بقريته، وما هو وفقه، ولم يرض الأول إلا بأن قسم ثم تقدم عن كل قسم قُدماً، وارتفع عليه درجة. وقد تكون القسمة مطلقه غير مشفوعة، كقول النابغة^(١):

فلله عينا من رأى أهل قبة أضرّ لمن عَادَى وأكثر نافعاً
وأعظم أحلاماً وأكرم سيدياً وأفضل مشفوعاً إليه وشافعاً
فهذا ضربٌ من التقطيع على معانٍ مختلفة؛ ولستُ أسمح بتسميته تقسيماً؛ وقد رأيتُ من يُطلق له هذه التسمية.

جمع الأوصاف

ومما يقارَبُ هذا جمعُ الأوصاف، كقول أبي دُوَادَ:
بعيد^(٢) مدى الطرف خَاطِي البضيع مُمَرَّ المَطَا سَمُهري العَصَب^(٣)
وقد يجمع على نوع آخر كقول النابغة^(٤):
حَدِيدُ الطَّرْفِ والمنكِـب والعُرْقُوبِ والقَلْبِ
وقد يُعدّ فيه التَّقْفِيَةُ والترصيع، كقول امرئ القيس^(٥):
والماء مُنْهَمِرٌ والشَّدُّ مُنْحَدِرٌ والقُصْبُ مُضْطَمِرٌ والمِتنُ مَلْحُوبٌ^(٦)

(١) لم نعثر عليهما في الديوان، وهما في العمدة (٢: ٢٢).

(٢) في أ «بديع»، وصوابه في ب.

(٣) خاطي البضيع: ممتلىء اللحم، وممر: مفتول، والمطا: جبل المتن، والسهمري: الشديد، والعصب؛ جمعه أعصاب؛ وهي أطناب المفاصل التي تلاثم بينها وتشدها، وفي العمدة: «سهمري القصب».

(٤) نسبة أبو علي القالي إلى أبي دُوَادَ. وقال أبو عبيد البكري: «الصحيح أنه لعقبه بن سابق الهزاني». وقبله:

طويـل طامـح الطـرف إلى مـفـزعة الكـلب
(٥) ملحق ديوانه ٢٢٦. وقد قال ابن بري: زعم الجوهري أنه لامرئ القيس، والبيت لإبراهيم بن عمران الأنصاري؛ قال وقبله:

قد أشهد الغارة الشعواء تحملني
إذا تبصرها الراؤون مقبلة
رقساقها ضرم وجريها خذم
والعين قاذحة واليد سابحة
واللسان (٢: ١٧٠).

وله في اللسان (٢: ٢٣٣) رواية أخرى غير متسوية:

فالعين قاذحة والرجل ضارحة والقصب مضطمر والمتن ملحوب
(٦) القصب: أسفل البطن من الأمعاء، ويريد به الخصر على المجاز؛ والمضطمر: المهزول، ويقال: لحب متن الفرس وعجزه: املاس في حدود.

وقد يمتنع بعضُ الأدباء من تسمية بعض ما ذكرناه بديعاً؛ لكنه أحدُ أبواب الصنعة، ومعدود في حلِّي الشعر، وله أشباه تجري مجراه، وتذكر معه؛ كالاتفات والتوصل وغيرهما، ولو أقبلنا على استيعابها، وتمييز ضرورها وأصنافها لاحتجنا إلى اتباع كل ما يقتضيه من شاهد وبيان ومثال. ولو فعلنا ذلك لبخسنا أبا الطيب حقه، وافتتحنا الكتاب بذكره ثم شغلنا معظمه بغيره؛ وإنما قدمنا هذا البُند^(١) توطئةً لما نذكره على أثره، وتدرجاً إلى ما بعده؛ ليكون كالشاهد المقبول قوله، وبمنزلة المسلم أمره.

الاستهلال والتخلص والخاتمة

والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة؛ فإنها المواقف التي تَسْتَعْظِفُ أَسْمَاعَ الحُضُورِ، وتَسْتَمِيلُهُمْ إِلَى الإصْغَاءِ، ولم تكن الأوائِلُ تخصُّها بِفَضْلِ مِرَاعَاةٍ؛ وقد احتذى البُحْثَرِيُّ على مثالهم إلا في الاستهلال، فإنه عُنيَ به فاتفتت له فيه محاسن؛ فأما أبو تمام والمتنبي فقد ذهبا في التخلص كلِّ مذهب، واهتمَّ به كل اهتمام، واتفق للمتنبي فيه خاصة ما بلغ المراد، وأحسن وزاد.

(١) البند: الشيء القليل.

بدء الوساطة

ثم نعدل إلى ما تكلفناه في هذه الوساطة فنقول: إن خَضَم^(١) هذا الرجل فريقان: أحدهما يعمُّ بالنقص كلُّ مُخَدَّث، ولا يرى الشعرَ إلا القديمَ الجاهليَّ وما سُلِكَ به ذلك المنهج، وأجْرِي على تلك الطريقة؛ ويزعم أن ساقه الشعراء رُؤْيَة، وابن هرْمَة، وابن مَيَّادَة، والحَكَم الخُضْرِي^(٢)، فإذا انتهى إلى مَنْ بعدهم - كبِشَّار وأبي نواس وطبقتهم - سَمَّى شعرهم مُلْحاً وطُرْفاً، واستَحسن منه البيتَ استِحسانَ النادرة، وأجراه مجرى الفكاهة؛ فإذا نزلت به إلى أبي تمام وأضرابه نَفَضَ يده، وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتاً قَطَّ، ولم يقعوا من الشعر إلا بالبعد.

ومَنْ [كان] هذا رأيه ومدبه، وهذه دعواه ونُحَلته فقد أعطاك ما أردت من وجهٍ وإن مانعك سواه، وسَمَح لك بما التمسْت وإن التوى عليك في غيره؛ لأن الذي انتصبت له، وشغلت عنيتك به - إلحاق أبي الطيب بهذه الطبقة، وإضافته إلى هذه الجملة، وقد بذل ذلك، وقرب مطلبه عليك؛ فإن تكن الجماعة منسلخة من الشعر، موسومة بالنقص، مستحقة للنفي، فصاحبك أولهم؛ وإن تكن قد عَلِقَتْ منه بسبب، وحظيت منه بطائل، وكان له فيه قدم، ومنه حظ وموقع، فهو كأحدهم.

وليس الحكم بين القدماء والمولدين من التوسط بين المحدث والمُخَدَّث بسبيل؛ كما لا نسب بينه وبين تفضيل قديم على قديم، وإنما يستعيب لك هذه المخاطبة مَنْ وافقك على فضل أبي تمام وحزبه، وسلّم محل مسلم ومَنْ بعده، فتجعل هؤلاء شهودك وحججك، وتقيم شعرهم حكماً بينه وبينك؛ فإنك لا تدعي لأبي الطيب طريقةً بشار وأبي نواس، ولا منهاج أشجع والخريمي، ولو ادّعيته فإنما كنت تخادع نفسك، أو تُباهت^(٣) عقلك، وإنما أنت أحد رجلين: إما أن تدّعي له الصنعة المحضة فتُلحِّقه بأبي تمام وتجعله من حزبه، أو تدّعي له فيه شركاً وفي الطبع حظاً، فإن ملت به نحو الصنعة فَضَّلَ مَيْلَ صيرته في جَنَبَةٍ^(٤) مسلم، وإن وفّرت قسطه من الطبع عدلت به قليلاً نحو البُخْري.

(١) الخصم: يستوي فيه المفرد والجمع.

(٢) في الأصلين: «الحضري»، تصحيف. وهو الحكم بن معمر، منسوب إلى الخضر، قبيلة في قيس عيلان.

(٣) أصل باهته: استقبله بأمر لا يعلمه وهو منه بريء، فيبهت منه.

(٤) الجنبية: الناحية.

وأنا أرى لك إذا كنت متوخيًّا للعدل، مؤثراً للإنصاف أن تقسم شعره؛ فتجعله في الصدر الأول تابعاً لأبي تمام، وفيما بعده واسطة بينه وبين مُسلم.

القدماء والشعر الحديث

وما أكثر مَنْ ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جِلَّة الرواة، مَنْ يلهج بعيب المتأخرين؛ فإن أحدهم يُنشد البيت فيستحسِّنه ويستجيده، ويَعْجَب منه ويختاره؛ فإذا نُسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذَّب نفسه، ونقض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون مَحْمَلاً وأقل مَرْزَأة من تسليم فضيلة لِمُحَدَّث، والإقرار بالإحسان لمولِّد.

إسحاق الموصلي والأصمعي

حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال: أنشدت الأصمعي:

هَلْ^(١) إِلَيَّ نَظْرَةَ إِلَيْكَ سَبِيلُ فَيُبَلِّ الصَّدَى وَيُشْفَى الْعَلِيلُ
إِنَّ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقَلِيلُ

فقال: واللَّهِ هذا الدِّبْيَاجُ الخُسْرَوَانِيُّ، لِمَنْ تنشدني؟ فقلت: إنهما ليلتهما فقال: لا جرم والله إن أثر التكلُّف فيهما ظاهر^(٢).

وعن ابن الأعرابي^(٣) في أبيات أبي تمام في الرُّوضِ نحو من هذا. وله نظائر مشهورة تُحكى عن الأصمعي ومن بعده. وقد بعدت بهم العصبية في ذلك إلى تناول بعض المتقدمين.

شعر أبي دُوَادٍ وعدي بن زيد

زعم الأصمعي أن العرب لا تُزوِي شعر أبي دُوَادٍ وعدي بن زيد؛ لأن ألفاظهما ليست بَنَجْدِيَّة؛ وكيف يكون ذلك! وهذا معاويةٌ يفضِّل عدياً على جماعة الشعراء. وهذا الحطيئة يُسأل: مَنْ أشعر الناس؟ فيقول: الذي يقول، وأنشد لأبي دُوَادٍ^(٤):

لَا أَعْدُ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَكُذِّمْتُ مِنْ قَدْرِ زُنْتِهِ الْإِعْدَامُ
مِنْ رِجَالٍ مِنَ الْأَقْرَابِ مَاتُوا مِنْ حُذَاقِ هِمِّ الرَّؤُوسِ الْكِرَامِ^(٥)
فِيهِمْ لِلْمُلَايِنِينَ أَنَاةٌ وَعُغْرَامِ^(٦) إِذَا يُسْرَادِ عَرَامِ

(١) الأغاني (٥: ٧١).

(٢) رواية الأغاني: «فقال: هذا الدبياج الخسرواني، هذا الوشي الإسكندراني: لمن هذا؟ فقلت له: إنه ابن ليته؛ فتبينت الحسرة في وجهه، وقال: أفسدته أفسدته: أما إن التوليد فيه ليبن».

(٣) انظر أخبار أبي تمام للمصولي ص ١٧٣.

(٤) مهذب الأغاني (١: ١٤٨)، وروى البيت الثاني في اللسان (١١: ٣٢٤) هكذا:

ورجال من الأقارب كانوا من حذاق هم الرؤوس الخيار

(٥) حذاق: رهط أبي دواد الإيادي. (٦) العرام: الشراصة والأذى.

أبو رياش القيسي وشعر البحري

ولقد يتفق لأحد هؤلاء غلبة الإنصاف على قلبه في الوقت بعد الوقت، فيخلع رداء العصبية، ويضعي ويميز فيرجع. حدثني جماعة من أصحاب [أبي] رياش القيسي^(١)، ولا نعرف في زماننا راوية تقدمه، وكان معروفاً بالتحامل على هؤلاء والغض من أبي تمام والبحري خاصة، حتى إن نسخ هذين الديوانين قلت بالبصرة في وقته؛ لقلّة الرغبة فيهما: أنه أنشد ذات يوم قول البحري^(٢):

نظرتُ إلى طَدَانٍ فقلّلت ليلى هناك وأين ليلى من طَدَانٍ^(٣)!
ودون^(٤) مزارها إيجاف^(٥) شهر وسبع للمطايا أو ثمان
ولما غربت أعراف سَلَمَى لهنّ وشرقت قُنن القينان^(٦)
تصوبت^(٧) البلاد بنا إليكم وغنّى بالإياب الحاديان

فقال: أحسن والله! من هذا البدوي المطبوع؟ فقيل: إنها للوليد بن عبيد، فقال: أعد، فأعيدت، فرجع عن رأيه فيه، وحض الناس على رواية شعره.

التحامل في النقد

ولو أنصف أصحابنا هؤلاء لوجد يسيرهم أحق بالاستكثار وصغيرهم أولى بالإكبار؛ لأن أحدهم يقف محصوراً بين لفظ قد ضيق مجاله، وحذف أكثره، وقلّ عدده، وحظر معظمه. ومعان قد أخذ عفوها، وسبق إلى جيدها؛ فأفكاره تنبأ في كل وجه، وخواطره تستفتح كل باب؛ فإن وافق بعض ما قيل، أو اجتاز منه بأبعد طرف قيل: سرق بيت فلان، وأغار على قول فلان. ولعل ذلك البيت لم يقرع قطّ سمعه، ولا مرّ بخلده؛ كأن التوارد عندهم ممتنع، واتفاق الهواجس غير ممكن! وإن افتزع معنى بكراً، أو افتتح طريقاً مبهماً لم يرض منه إلا بأعذب لفظ وأقربه من القلب، وألذّه في السمع؛ فإن دعاه حبّ الإغراب وشهوة التنوّق إلى تزيين شعره وتحسين

(١) هو أحمد بن إبراهيم أبو رياش القيسي اللغوي. روى عن مشايخ البصرة، وروى عنه عبد السلام البصري وطبقته. إنباء الرواة (١: ٢٥).

(٢) ديوانه (٢: ٢٨١).

(٣) طدان: قال ياقوت: هو موضع بالبادية في شعر البحري. وفي الأصلين «ظاران»، والتصحيح عن الديوان.

(٤) رواية الديوان: «ودون لقاتها». (٥) الإيجاف: نوع من السير.

(٦) في الأصلين:

ولما عرفت أعراف ليلى لهنّ وشرقت قنن القيان
وهذه رواية الديوان.

والأعراف: جمع عرف، وهو كل عال مرتفع، والأعراف أيضاً: ضرب من النخل.

(٧) في الأصلين: «فصويت»، وهذه رواية الديوان.

كلامه، فوشَّحه بشيء من البديع، وحلَّاه ببعض الاستعارة قيل: هذا ظاهرُ التكلف، بيِّن التعسف، ناشف الماء، قليل الرُّونق. وإن قال ما سمَّحتُ به النفس ورضي به الهاجس قيل: لفظ فارغ وكلام غسيل؛ فإحسانه يُتأوَّل، وعيوبه تُستَحَل، وزلته تتضاعف، وعذره يُكذَّب؛ فلا تشتغلن بهذه الطائفة ما دمت تنظر بين المتنبِّي وأهل عصره، وأخر المنازعة في هذا الرأي، وإن كان الخلاف الأكبر، فإن لكل مقام مقالا. وإنما خصمك الألدُّ، ومخالفك المعاند، الذي صمذت لمحاكمته، وابتدأت بمُنَازعته ومحاَجَّته، مَنْ استحسن رأيك في إنصاف شاعر، ثم ألزمت الحيفَ على غيره، وساعدك على تقديم رَجُل، ثم كلَّفك تأخير مثله؛ فهو يسابقك إلى مدح أبي تمام والبحثري، ويسوِّغ لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي؛ حتى إذا ذكرت أبا الطيب ببعض فضائله، وأسميته في عداد مَنْ يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور، ونفر بفار المَضمِيم، فغضَّ طرْفه، وثنى عِظفه، وصعَّر حَدَّه، وأخذته العزة بالإثم، وكأنما زوى بين عينيه عليك المحاجم.

وأقبل عليك أيها الراوي المتعجب فأقول لك: خَبَرني عمن تعظَّمه من أوائل الشعراء، ومن تفتتح به طبقاتِ المحدثين؛ هل خلص لك شِعْر أحدهم من شائبة، وصفا من كدير ومعباة؟ فإن ادَّعيت ذلك وجدت العيان حَجيجك، والمشاهدة خَصْمك؛ وُعَدنا بك إلى أضعاف ما صدرنا به مخاطبتك، واستعرضنا الدواوين فأريناك فيها ما يحول بينك وبين دَعواك، ويَحْجُزك إن كان بك أدنى مُسكة عن قولك. فإن قلت: قد أغثر بالبيت بعد البيت أنكره، وأجد اللفظ بعد اللفظ لا أستحسنه، وليس كل معانيهم عندي مرضية، ولا جميع مقاصدهم صحيحة مستقيمة. قلنا لك: فأبو الطيب واحد من الجملة، فكيف خُصَّ بالظلم من بينها، ورجل من الجماعة فليَمَ أفرد بالحيف دونها؟ فإن قلت: كثر زلُّه، وقلَّ إحسانه، واتسعت معاييه، وضافت محاسنه. قلنا: هذا ديوانه حاضراً وشعره موجوداً ممكناً؛ هلم نستقرئه ونتصفحه، ونقلبه ونمتحنه، ثم لك بكل سيئة عشر سنوات، وبكل نقيصة عشر فضائل، فإذا أكملنا لك ذلك واستوفيته، وقادك الاضطراب إلى القبول أو البهت، ووقفت بين التسليم والعناد عُدنا بك إلى بقية شعره فحاججناك به، وإلى ما فضل بعد المقاصة فحاكمناك إليه.

موازنة بين ابن الرومي والمتنبِّي

وقد تجد كثيراً من أصحابك يتحل تفضيل ابن الرومي ويغلو في تقديمه، ونحن نستقرئ القصيدة من شعره، وهي تناهز المائة أو تُزبي أو تُضعف، فلا نعر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين؛ ثم قد تنسلخ قصائد منه وهي واقفة تحت ظلها، جارية على رسلها؛ لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي وانتظار الفراغ، وأنت لا تجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تُختار، ومعان تستفاد، وألفاظ تروق وتعذب، وإبداع يدل على الفطنة والذكاء، وتصرف لا يصدر إلا عن غزارة واقتدار.

تفاوت شعر أبي نواس

ولو تأملت شعر أبي نواس حق التأمل، ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه، وعددت منقبه ومختاره، لعظمت من قدر صاحبنا ما صغرت، ولأكبرت من شأنه ما استحققت، ولعلمت أنك لا ترى لقديم ولا محدث شعراً أعم اختلالاً، وأقبح تفاوتاً، وأبين اضطراباً، وأكثر سفسفة، وأشد سقوطاً من شعره هذا؛ وهو الشيخ المقدم والإمام المفضل الذي شهد له خلف وأبو عبيدة والأصمعي، وفسر ديوانه ابن السكيت.

جيد شعر أبي نواس

- فهل طمست معاييه محاسنه؟ وهل نقص رديه من قدر جيده؟ وهل ضرر قوله^(١) :
 يحميك مما يستسر بفعله ضحكات وجه لا يريبك مشرق
 حتى إذا أمضى عزيمة أمره أخذت بسمع عدوه والمنطق
 وقوله^(٢) :
 يا نائق لا تسأمي أو تبُلغي ملكا تقبيل راحته والركن سيان
 متى تحطى إليه الرّحل سالمة تستجمعي الخلق في تمثال إنسان
 وقوله^(٣) :
 لعمرك ما غاب الأمين محمد عن الشيء يعنيه إذا حضر الفضل
 ولولا مواريت الخلافة أنها له دونه ما كان بينهما فضل
 فإن كانت الأحساب^(٤) فيها تباين فقولهما قول وفعلهما فعل
 أرى الفضل للدينيا وللدين جامعاً كما السهم في الفوق والرّيش والتّصل^(٥)
 وقوله^(٦) :
 إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما تُثني وفوق الذي تُثني

(١) ديوانه ص ٦٢. (٢) ديوانه ص ٦٥.

(٣) ديوانه ص ٨٧.

(٤) رواية الديوان ومختارات البارودي: «الأجسام».

(٥) الفوق: موضع الوتر من السهم، والرّيش: ما يوضع في السهم، والنصل: حديدة السهم.

(٦) مختارات البارودي (١: ١١٤).

وإن جرت الألفاظ مِثًا بمدحة
لغيرك إنساناً^(١) فأنت الذي تُعني
وقوله^(٢):

لَا أَدُودُ الطَّيْرِ عَنْ شَجَرٍ
خَفْتُ مَأْثُورَ الْحَدِيثِ غَدًا
خَابَ مَنْ أَسْرَى إِلَى مَلِكٍ^(٤)
فَامُضْ لَا تَمُتْنِ عَلَيَّ يَدَا
رُبَّ فَتْيَانٍ زَيَّاتِهِمْ
فَاتَّقُوا بِي مَا يَرِيْبُهُمْ
وقوله^(٦):

قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدي
وإذا عددت سنِّي كم هي لم أجد
وقوله:

بَأَثُوا وَفِيهِمْ شَمُوسٌ دُجِنُ^(٨)
تَعُومُ أَعْجَازُهُنَّ عَوْمًا
وقوله^(٩):

وكأسٍ كمصباح السماء شربتها
أنت دونها الأيام حتى كأنها
على قبلة أو موعده بلقاء
تساقط نور من فُتُوق سماء

(١) في أ «إنسان»، وصرابه في ب. (٢) ديوانه ص ٦٦.

(٣) جاء في شرح ديوان أبي نواس ما نصه تعليقاً على هذا البيت:

لا أدود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره
فقال: أخبرك؛ كانت لي صديقة تحبني كثيراً، فقبل لي: إنها كانت تختلف إلى آخر من أهل
الريب، فلم أصدق حتى تتبعتها فرأيتها تدخل إلى منزل ذلك الرجل، ثم إن ذلك الرجل جاءني
- وكان لي صديقاً - فكلمني فصرفت وجهي عنه وقلت:

أيها المنتاب من عفره لست من ليلي ولا سمره
ثم جعلت ذلك صدر مديح العباس الهاشمي.

(٤) في الديوان: «إلى بلد».

(٥) ربات: حرست، والعيوق: نجم معروف، والسحر: قبيل الفجر، ومسقط: منصوب على الظرفية.

(٦) ديوانه ص ٢٩٥.

(٧) رواية الديوان:

قالوا شمطت فقلت ما شمطت يدي عن أن تحث إلى فمي بالكاس

(٨) ديوان المعاني: (١: ٢٤٦)، والقرون: جمع قرن: وهو الضفيرة من الشعر.

(٩) مختارات البارودي (٤: ٤).

وقوله^(١):

قامت تريك وأمر الليل مجتمع صباحاً^(٢) تولد بين الماء والعنب
 كأن صغرى وكبرى من فواقعها^(٣) خصباءً ذرّ على أرض من الذهب^(٤)
 كأن تزكاً قياماً في جوانبها تواتروا الرمي بالنشاب من كئب^(٥)
 وإن كان التحويون ينكرون صغرى وكبرى بغير ألف ولا م.
 وقوله^(٦):

فإذا علاها الماء ألبسها زبداً شبيهة جلاجل الججل^(٧)
 حتى إذا سكنت جوامحها^(٨) كتبت بمثل أكارع النمل^(٩)
 خطين من شتى ومجتمع غفل من الإعجاب والشكل
 وقوله^(١٠):

فتمثت في مفاصلهم كتمشي البُرء في السقم
 ومن سلك هذا المسلك من شعره فقد صافح السماء وتناول النجوم.

ردية شعر أبي نواس

[هل ضرّ قوله هذا] غثاة^(١١) قوله يمتدح الأمين^(١٢):

فعضانده بإراحتي أعلوبها الإفلاس قَرعاً

- (١) ديوانه ص ٢٤٣، ومختارات البارودي (٤ : ٥).
 - (٢) في الأصلين: «صبح»، وصوابه من الديوان.
 - (٣) كذا في الأصلين، وفي الديوان ومختارات البارودي. والذي في كتب الشواهد: «فقاوعها»؛ وهي ما يعلو الخمر.
 - (٤) الحصباء: الحصى.
 - (٥) شبه الحبيب بنشاب يختلف من ترك يترامون من كئب، ذلك لأنه في كأس، وهو موضع ضيق.
 - (٦) ديوانه ص ٣١١، ومختارات البارودي (٤ : ١٥).
 - (٧) الضمير في علاها يعود على الخمر في بيت قبله:
- صفراء مجدها مرازبها جللت عن النظراء والمثل
 والجالجل: جمع جلجل وهو الجرس الصغير، والحجل: الخلدخال، وفي الأصلين «خلاخل»
 وهو تحريف. ورواية البارودي:
- فإذا علاها الماء ألبسها نمشا شبيهه جلاجل الحجل
 (٨) في الأصلين: «جوانحها».
- (٩) أكارع النمل: أرجله. أخذه من قول الأخطل:
 - (١٠) مختارات البارودي (٤ : ١٦). (١١) غثاة: فاعل ضر في ص ٥٢؛ والزيادة ليتضح المعنى.
 - (١٢) ديوانه ص ١٢٤.

وعليّ سورّ مانعٌ فلو أنّ دهرأ زابني وقوله ^(٢) :	من جوده إن خفتُ كسعا ^(١) لصفعته بالكفّ صفعا
مالرجل المالِ أضحّت مالأموالك منّ جأ وقوله:	تشتكي منك الكلالا ء اختشى منها وكألا
أيا من وجهه الداحي ^(٣) أماليّ منك يا ظا وضعفُ قوله:	ومن منزله الماحي لم إلا اللاهي واللاحي
ألا يا قمر الدار ويا نفحة نسرين ويا جدول بستان ويا كغبين من عاج ويا زرداً لفتيان ويا مشواك جمّاش وقوله:	ويا منكة عطار ويا وردة أسحار على شاطئ أنهار ويا غرّة دینار ويا لغبة أبقار ويا طنبور شطار ^(٤)
قد غنينا عن الشتا وعن الحشول لعلما وعن الفرش والوطا قدم الصيف بالولا بالمناديل والغلا والطنابير والطبو يُحشّرُ الناس في القيا أنامالي ولربما لست ممن يطوف في أركبُ المرد في الديا	وعن اللبس لئفرا مة والكنّ والصلأ ^(٥) ببيوت بلا كرا ية قدامه اللوا لة والتئعمل والرّدا ل وبالقصر والغنسا مة مُزدا بلا لحي ط وللعزّو والفدا عرفات ولا منى روفي الممدن والقري

(١) في الأصلين «لسعا»، وما أثبتناه عن الديوان.

(٢) ديوانه ص ١١٩.

(٣) الداحي: المنبسط.

(٤) الجماش: المتعرض للنساء، والشطار: الخليج.

(٥) الصلاة: الرقود.

فإذا ما تمنعوا وعصوا أبذل الرشا
وهو كما تراه في سُخْف اللفظ، وسوء النظم، وسقط المعنى، وقوله:
خَمْدَان مَالِك تَغَضِبُ عَلِيَّ مِنْ غَيْرِ مُغْضَبٍ
فقد حلفتُ يميناً فثق بذلك مني
فالبخر أصبح شاني وقد تسألينتُ ألا
وقوله:

ذاك الذي من يد اللـ فكلُّ جانبِ قلبي
ويلي! وليس يرى لي ويلي! وما هكذا إخـ
لم يَخْتَرِقْ بَيْتِنَا حَتَّى بَدَأَ مِنْهُ مَا لَمْ
ولا اهْتَدَى بِأَحْتِيَالٍ مَا أَفْصَحَ الظَّرْفَ حِدا
وقوله:

وَنَائِحِ هَبَّ فِي الغصونِ ضَحَى يَدْعُو بِذِكْرِ عَلِيٍّ اسْمَهُ لِهُوَى
وقوله:

فَارْدُدْ عَلَيَّ حَيَاتِي وَقَوْلُهُ (١):

قَدْ حَكَى البِدْرُ بَهَاكَا وَازْدَهَى بِالحُشْنِ لَمَّا
وقوله:

عَلَسِيو يَارِيمُوْدَه وَقَدْ عَلِمْتَ لَعْمُرُ الْـ
بِالاسْتِغْلَابِ إِذَا مَا

وعصوا أبذل الرشا
علي من غير مُغْضَبٍ
مبرورة ليس تُكْذِبُ
يابن الكريم المَرْكَبِ
والبخرُ أشهى وأطيب
في البر ما عشتُ أَزْكَبُ

ه حار فيه القبولُ
شوقاً إليه يميلُ
حقُّ الهوى فيميلُ
وتبي يكونُ الخليلُ
حسنناً بوْدَ رَسولُ
يَفْعَلُهُ قَطْ مَلولُ
إليه قَطْ بِخَيْلُ
للود حين يَجُولُ

كَمُنْتَشٍ مَوْهِناً إِذَا انْقَلَبَا
بذكرنا في أوانه الرطبا

عَضُّا بِفِيكَ وَلَحْسَا

فَرَأَهُ مَن رَأَى كَا
صار في الحسنِ حكاكا

أصْبَحْتُ لِي مَسْتَعْدَّةُ
إِلَيْهِ أَنْكَ جَلْدُهُ
مشيت لي مَشَى نَجْدُهُ

ورجرجت من وزاها
وقوله:
أرداف إيزار بسنده

قد صبغت بنت المدينية
وسألت ماشطها أجرة
فاسلفوا يا قوم في...
فإنها أعشقت بغاية
يا عمرو ما بال المدينة
لا تأكل العصبان مشويه

ونحو هذا مما يمل الناظر، ويضيع وقت الكاتب. ولو وجد لأبي الطيب بيت مثله، وحرف يقاربه لعصب بعاره، ولانطلقت الألسن بعبه، وصدّر به ديوان مثالبه وصحيفة مساويه.

اللحن في شعر أبي نواس

فإن طلب اللحن والغلط أخذ عليه مثل قوله^(١):
وضيف كأس محدثه ملك
تية معن وظرف زنديقي
فسكن الهاء، وقوله: «يا ربّي الجبار». فرغ «الجبار».
وقوله^(٢):

يا خيّر من كان ومن يكون
إلا النبي الطاهر الميمون
وقوله^(٣):

فلما خشى الإيبا
من صخب وجلّاس
وإنما هو الإباء.
وقوله^(٤):

وإذا نزعنا إلى الغواية فليكن
لله ذاك النزع لاللسناس

فساد العقيدة في الشعر

وإنما هو نزاع عن الشيء نزوعاً، وأبيات كثيرة يضعف عذره في معظمها، وإن كان باب التأويل يتسع، ومذاهب الاحتيال في النحو لا تضيق.
ووجد له في الإحالة مثل قوله^(٥):

وأخفت أهل الشرك حتى إنّه
لتخافك النطف التي لم تخلق

(١) ديوانه: ص ٨٩.

(٢) الموشح: ص ٢٦٧.

(٣) ديوانه ص ٩٥.

(٤) ديوانه ص ٢٩٥.

(٥) الموشح ص ٢٦٨.

وقوله:

حتى الذي في الرحم لم يك نطفة لفسؤاده من خوفه خفقان
وقوله يصف الباري، جل أن يوصف:
إن الذي لا يخيب سائله جوهره غير جوهر البشر
وقوله:

كانت ذخيرة صانع متنوق^(١)

يعنيه - جل وعز .

خطأ الوزن في شعر أبي نواس

ومن الخطأ في الوزن قوله:

رأيت كل من كان ن أحما ماعتوها
فسي ذا السزمان صار المقدم الوجيها
يارب نذل وضيع نوهته تنسويها
هجوته لكيما أزيده تشويها
فبعضه «مستعلن مفعول وفعل»، وبعضه «مستعلن فاعلان».

فساد العقيدة عند أبي نواس

والعجب ممن ينقص أبا الطيب، ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة كقوله^(٢):

يترشفن من فمي رشفات هُنَّ فيه أخلى من التوحيد
وقوله^(٣):

وأبهر آيات الشامي أنه أبوكم^(٤) وإحدى ما لكم من مناقب
وهو يحتمل لأبي نواس قوله:

قلت والكأس على ك قمي تهوي لالتشامي
أن لا أعرف ذلك الس يوم في ذاك الزحام
وقوله^(٥):

يا عاذلي في الدهر ذا هجر لاقدر صح ولا جبر

(١) متنوق: متأنق. ديوانه (١: ٣١٥).

(٢) ديوانه (١: ١٥٤). (٤) رواية الديوان: «أبوك».

(٥) الموشح ص ٢٧٦، وروي البيت الأول هكذا:

يا ناظرأ في الدين ما الأمر لاقدر صح ولا جبر

ما صح عندي من جميع الذي
فاشرب على الدهر وأيامه
وقوله^(١):

عاذلتي بالسفاه والزجر^(٢)
باح لساني بمضمرة السر
بين رياض السرور لي شيع
موقنة بالممات جاحدة
وليس بعد الممات مُنقلب
وقوله:

أترك لذة الصهباء نقداً
حياة ثم موت ثم بَعث
وقد روي أنهما لديك الجن .
وقوله^(٤):

فدع الملام فقد أطمعت غوايتي
ورأيت إيثار اللذّاذة والهوى
أحرى وأحزم من تنظر آجل
إنني بعاجل ما ترين موكل
ما جاءنا أحدٌ يخبر أنه

فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر،
لوجب أن يُمَحَى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عُذت الطبقات،
ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون
كعب بن زهير وابن الزُبَيْرِ وأضرابهما ممن تناول رسولَ الله ﷺ وعاب من أصحابه
بُكْماً خرساً، وبِكاء^(٥) مفحمين؛ ولكنَّ الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر.

(١) الموشح: ٢٧٧.

(٢) في أ «الهجر»، وما أثبتناه عن ب.

(٣) بيضة العقر: آخر بيضة تبيضها الدجاجة إذا هرمت.

(٤) الموشح ص ٢٧٧، مع تغيير في رواية الأبيات.

(٥) البكاء: جمع بكيء، وهو من قل كلامه خلقة.

تفاوت شعر أبي تمام

الجيد من شعر أبي تمام

ولو لزمتم هذا المثل في شعر أبي تمام لتظاهرت عليك الحُجج، وكثرت عندك الشواهد، فقوي في نفسك رأبي واعتقادي، وتصور لك صدقي وإصابتي؛ إذ رأيتَه يقول^(١):

أموسى بن إبراهيم دعوة خامس
جليد على عتب الخطوب إذا عَرَتْ^(٣)
أأمْنُحْ هَجْرَ القَوْلِ من لو هَجْوَتَه^(٤)
كريم متى أمدحُه أمدحُه والورى
أرْدُ يدي عن عِرْضِ حرٍّ ومَنْطَقِي
فإن يك سُخْطٌ عَن أوتِكَ هَفْوَةٌ
ويقول^(٥):

ومن لم يسلم للنوائب أضبَحَتْ
وقد يَكْهَمُ^(٦) السيف المسمى مَنِيَّة
خلائقه جَمْعاً عليه نَوَائِبَا
وقد يرجع المرء المظفَّرُ خَائِبَا

(١) ديوانه ص ١٢٨، ومختارات البارودي (١: ١٦٤).

(٢) الخامس: الظمان لم يرد الماء منذ أربعة أيام، والتثريب: اللوم. وموسى بن إبراهيم ممدوح أبي تمام.

(٣) رواية البارودي:

جليد على عتب الخطوب إذا التوت

ورواية الديوان:

جليد على ريب الخطوب وعتبها

(٤) رواية البارودي:

أ ألْبَسَ هَجْرَ القَوْلِ من لو هَجْوَتَه

ورواية الديوان:

اسربل هجر القول من لو هجوته

(٥) ديوانه ص ١٧، ومختارات البارودي (١: ١٧).

(٦) يكهم: يقطع.

فأفة ذَا أَلَا يُصَادِفَ مَضْرِبًا^(١) وأفة ذَا أَلَا يُصَادِفَ ضَارِبًا
وقوله^(٢):

أقول وقد قالوا استراحت لموتها لقد نزلت ضنكا من اللحد والثرى
وكنت أَرْجِي القُرْب وهي بعيدة لها منزلٌ تحت الثرى وعهدتها
ويقول^(٤):

أرى الناسَ مِنْهَاجِ الندى بعد ما عَفَتْ ففي كل نجد في البلاد وغائر
فيا أيها السَّارِي اسْرِ غير محاذر ويقول^(٧):

ذو الوُدِّ مني وذو القربى بمنزلةٍ في دهري الأول المذموم أعرفهم
عصابة جاورت آدابهم أدبي ويقول^(٨):

فتى مات بين الضرب والطعن ميتةً لئن أبغض الدهرُ الخؤون لفقده
وكيف احتمالي للسحاب صنيعة ويقول^(٩):

وما اشْتَبَهَتْ طريقَ المجد إلا وما سافرتُ في الآفاقِ إلا
مقيم الظن عندك والأمانى هادي هداك لِقِبلة المعروف هادي
ومن جَدُواك راحلتي وزادي وإن قلقت ركابي في البلاد

(١) رواية البارودي والديوان: «راميا».

(٢) ديوانه ص ٣٥٦.

(٤) ديوانه: ٤٥.

(٥) عفت: درست. والمهايج: الطرق الواسعة. ومحت: بليت. واللواحب: الطرق الواضحة.

(٦) جنان الظلام: قلبه.

(٧) ديوانه ص ٣٣٢.

(٨) ديوانه ص ٣٦٩.

(٩) ديوانه ص ٧٩، ومختارات البارودي (١: ١٥٣).

الردىء من شعر أبي تمام

فيترقى في هذه الدَّرَجِ العالية، ويتصرف هذا التصرف المعجز، ثم ينحط إلى الحضيض ويلصق بالتراب، ويقول^(١):

أصبحت نية العقل فاضل لميسم بيدي ألحج الناس في الإنضاج
ويقول^(٢):

ألا لا يمدُّ الدهرُ كفاً بسيتي إلى مجتدي نضر فتقطع للزُّند^(٣)
ويقول^(٤):

لو كان كلُّها عبيداً حاجةً يوماً لزنى شدقماً وجديلاً^(٥)
وأظنه لو وجد لفظه أسقط من «زنى»، وأقل مناسبة للمعنى لاستعملها.
ويقول^(٦):

نم وإن لم أئنم كراي كراكا شاهدي الدمع إن ذاك كذاكا^(٧)
طال ضربي نفسي فداؤك بل من أنا حتى تكون نفسي فداكا^(٨)
ضاق صدري بل كيف أستطيع أن أضح سر إذ كان ناظري لا يراكا
ذهبت مقلتاي بالدم والدمح إلى النار^(٩) إذ نجت مقلتاك
ويقول^(١٠):

بنفسي من هواه أخي وتزبي وجببه رضيع بنات قلبي
ومن قد شقني وصبرت حتى ظننت بأن نفسي نفس كلب

(١) ديوانه ص ٤٩١.

(٢) ديوانه ص ١١٥.

(٣) في الأصل: «من الزند».

(٤) ديوانه ص ٢٤٣، والموشح ص ٣١١.

(٥) البيت في وصف المطايا، وعبيد: هو عبيد الراعي. قال شارح ديوان أبي تمام: شدقم وجديل: فحلان من الإبل كانا للنعمان بن المنذر اللخمي؛ يضرب بهما المثل. ورواية الديوان: «لأنسى».

(٦) ديوانه ص ٤٥٥.

(٧) رواية الديوان:

شاهدي منك أن ذاك كذاكا

(٨) رواية الديوان:

طال صبري تغديك نفسي وقلت نفسي مثلي عن أن تكون فداكا

(٩) في الديوان: «ففي النار».

(١٠) لم نجدهما في الديوان.

ويقول :

فَسَمَّتْ لي وقاسمتني بسلطا في من السحر مقلتا عبْدوسِ
فالقسيم القسام عن لحظات منهما يختلسن حب النفوس
فالذي قاسمت بلخُظ إذا اللي ل تمطى من الكرى المنفوسِ
ولست أدري - يشهد الله - كيف تصوّر له أن يتغزل وينسب، وأي حبيب
يستعطف بالفلسفة! وكيف يتّسع قلب عبدوس هذا؛ وهو غلام غرّ، وحَدَث مُتْرَف
لا استخراج العويص وإظهار المعمى!

ويقول^(١) :

لم يبرح البينُ المُشْتُ جَوَانِحِي حتى تروّث من دم مسموم
ويقول^(٢) :

أترك حاجتي غرّض التواني وأنت الدلوّ فيها والرّشاء^(٣)
ويقول^(٤) :

ضاحي المحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله مخراثا^(٥)
ويقول^(٦) :

تُشْفَى^(٧) الحربُ منه حين تغلي مراجلها بشيطان رجم
ويقول^(٨) :

ولّى ولم يُظلم وما ظلم امرؤ حث النّجاء^(٩) وخلفه التّنين^(١٠)

(١) ديوانه ص ٣٠٦، وفي الديوان: «من هوى مسموم».

(٢) ديوانه ص ٣٩٤.

(٣) الرشاء: الحبل.

(٤) ديوانه ص ٦٤.

(٥) الضاحي: البارز؛ والمحيا: الوجه، والهجير: شدة الحر، والقنا: الرماح، والعجاج: الغبار، وتخاله: تظنه.

(٦) ديوانه ص ٢٨٨، والموشح ص ٣٠٦.

(٧) في الأصلين: «تنمي» وما أثبتناه عن الديوان والموشح: وتشفى: تجعل أثافي، وهي الحجارة. والمراجل: القدور.

(٨) ديوانه: ٣٢٧، والموشح: ٣٠٨.

(٩) في أ «حيث»؛ والتصحيح عن ب، وهو يوافق ما في الديوان والموشح.

(١٠) قال المرزباني في الموشح تعليقا على هذا البيت:

«فلو كان أجهد نفسه في هجاء الأفسين (الممدوح) هل كان يزيد على أن يسميه التنين! وما سمعت أحدا من الشعراء شبه به ممدوحاً بشجاعة ولا غيرها».

فهو يجعل الممدوح تارة دلوأ، وتارة محراثاً، ومرة رشاء، وأخرى تثنياً وشيطاناً رجيماً؛ وأظنه جَسَرَ على ذلك لما سمع قول جرير^(١):

أيام^(٢) يدعو نني الشيطانَ من غزلي وهنَّ يهوينني إذ كنتُ شيطاناً

وما أبعد ما بين الكلامين، وأشد تفاوت ما بين الموضوعين! ويقول^(٣):

كان الزمان بكم كلباً^(٤) فغادركم بالسيف والدهرُ فيكم أشهرُ الحرم

ويقول^(٥):

فحرام عليك أن تقرعيها مة قلبي بدمعك المهرق

وما تكاد قصيدة من شعره تسلم من أبيات ضعيفة؛ وأخرى غثّة، لا سيما إذا طلب البديع وتتبع العويص؛ فجاء بمثل قوله^(٦):

لعمري لقد حرّرتُ يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يُبرِّد

وقوله^(٧):

لن يأكلوا هم ولا عشيرتهم ما كنزوه من صامت الحسب^(٨)

وقوله^(٩):

ذُلتُ بهم عُنق الخليطِ وربما كان المُمْتَعُ أخدعاً وصَلِيفاً^(١٠)

وقد أولع بذكر الأخدع؛ فردده في عدة أبيات لم يوفق إلا في واحد منها.

قال^(١١):

سأشكر فُرْجَةَ^(١٢) اللَّبِّبِ^(١٣) الرخوي ولينَ أخادع الزَّمِينِ الأبِي

وقال^(١٤):

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

(١) ديوانه ص ٥٩٧. (٢) رواية الديوان: «أزمان».

(٣) ديوانه ص ٢٧٠. (٤) رواية الديوان: «حرباً».

(٥) لم نجدتها في الديوان. (٦) ديوانه ص ١٠١، والموشح ص ٣٠٨.

(٧) ديوانه ص ٤٨٧.

(٨) رواية الديوان:

(٩) ديوانه ص ٢٠٦، والموشح ص ١٨٣. لم يأكلوا هم ولا عشيرتهم ما كنزوه من صامت النشب

(١٠) الخليط: المخالط. والأخدع: عرق في العنق. والصليف: عرض العنق.

(١١) ديوانه: ص ٣٤٤. (١٢) الفرجة: السعة.

(١٣) اللبب: المنحر، وفي الديوان: «الليت» وهو صفحة العنق.

(١٤) ديوانه ص ٢١٠.

وقال^(١):

فَضْرِبْتَ الشَّتَاءَ فِي أَخْدَعِيهِ ضَرْبَةً غَادِرْتُهُ عَوْدًا^(٢) رَكُوبًا
وقد أحسن في قوله^(٣):

وما هو إلا الوحيُّ أو حدُّ مَرْهَفٍ تُمِيلُ ظَبَاهُ أَخْدَعِي كُلِّ مَائِلِ
وقد ذكره البحرني صفحا، فقال^(٤):

عَطَفَ إِذْ كَارُكَ يَوْمَ رَامَةَ أَخْدَعِي شَوْقًا وَأَعْنَاقُ الْمَطِيِّ قِوَاصِدُ
فوقع من الحلاوة والحسن في الموقع الذي تراه.

وقوله^(٥):

لَوْلَمْ تَفْتِ مُسِنَّ الْمَجْدِ مَذْزَمِينَ بِالْجُودِ وَالْبَاسِ كَانَ الْجُودُ قَدْ خَرِفَا
وقوله^(٦):

كَانُوا رِدَاءَ^(٧) زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فَكَأَنَّمَا لَبَسَ الزَّمَانُ الصُّوفَا
وقوله^(٨):

وَلِيَدِيكَ آلَاتُ جَنُوبٍ كُلِّهَا فَاحْطَمِ بِأَصْلِبِيهِنَّ أَنْفَ الشُّمَّالِ
فإن حمل نفسه على التكلف، وفارق الطبع إلى التعمق أراك مثل قوله^(٩):

أَلَا سَبِيلَ نَدَى إِلَّا سَبِيلَ بِلَى لَوْ كُنْتَ حَيًّا لِأَضْحَى لِلنَّدَى سُبُلِ
وقوله^(١٠):

لَوْلَمْ يَمْتِ بَيْنَ أَطْرَافِ الرَّمَاحِ إِذَا لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ
وقوله^(١١):

أَبْعَدَ التِّي مَا قَبْلَهَا أَفْبَعْدَهَا مَقَامَ لِحْرَقَلْتَ أَنْتَ عَجُولُ^(١٢)

(١) ديوانه ص ٢٧.

(٢) في الديوان: «قودا»، والعود: المسن من الإبل.

(٣) ديوانه ص ٢٤٩.

(٤) ديوانه (١: ١٤٢).

(٥) ديوانه ص ٢٠٤، وتفت: تدق، والبأس: الشدة.

(٦) الموشح ص ٣١٣، وديوانه ص ٢٠٦.

(٧) رواية الديوان: «برود». (٨) ديوانه ص ٢٣٦.

(٩) ديوانه ص ٣٨٤. (١٠) ديوانه ص ٣٨٨.

(١١) ديوانه ص ٤٠٨.

(١٢) رواية الديوان:

أبعد التي ما بعدها متلوم عليك لحرقت أنت ملوم

وقوله^(١):

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أم مذهب
وقوله^(٢):

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمن منك إلا بالرضا
بلغنا أن إسحاق بن إبراهيم الموصلبي سمعه ينشد هذا البيت، فقال له أن:
يا هذا، لقد شقت على نفسك، إن الشعر لأقرب مما تظن.
فإن أظهر التعجرف، وتشبه بالبدو، ونسي أنه حضري متأدب، وقروي متكلف
جاءك بمثل قوله^(٣):

قد قلت لما أطلختم الأمر وانبعثت عشواء تالية غبساء دهاريسا^(٤)
وقوله^(٥):

فعنيقها يعضيدها ووشيجها سعدائها وزميلها تئومها^(٦)
وقوله^(٧):

إن الأشاء إذا أصاب مُشَدَّبٌ منه اتمهل دُزَى وأث أسافلا^(٨)
وقوله^(٩):

وحادث^(١٠) أخرق داويئته رداعة داهية دزدبيسن^(١١)
وقوله^(١٢):

ومزخزحاتي عن ذراك^(١٣) عوائق أضحزن بي للعنقفير المؤبد^(١٤)

(١) الموشح ص ٣٠٩، وأسرار البلاغة ص ٤، وديوانه ص ٣٩.

(٢) ديوانه ص ١٨٧. (٣) ديوانه ص ١٧١.

(٤) أطلختم: أظلم، وعشواء: ضعيفة البصر، والغبس: جمع غبساء وهي المظلمة، والدهاريس: الدواهي.
(٥) ديوانه ص ٣١٢.

(٦) العنيق: المعانق. واليعضيد: بقلة تشبه الهندباء البري. والوشيج: اشتباك القرابة، والسعدان:
نبت من أفضل مراعي الإبل. والزميل: الرفيق. والتنوم: شجر.

(٧) ديوانه: ٣٨٠.

(٨) الأشاء: صغار النخل. اتمهل: انتصب واعتدل. أث الثبت: كثر والتف.

(٩) ديوانه ص ١٨٠.

(١٠) في الديوان: «وحائن»، والحائن: الأحمق، وكذلك الأخرق.

(١١) الرداعة: من ردع فلان إذا وجع جسده كله، والدردييس: الداهية.

(١٢) ديوانه ص ١١٤.

(١٣) في الديوان: «هواك».

(١٤) أضحرن: قصدن الصحراء. العنقفير: الداهية. والمؤبد: من الأبدية.